هشام وهبي

متاهات الحجرة المغلقة

مجموعة قصصية

متاهات الحجرة المغلقة

هشام وهبي

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر

رقم الإيداع
2019MO6292

الترقيم الدولي ISBN
978-9920-668-64-4

الترخيص
مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف ٤,٠ - دولي

الغلاف:
رؤى محمد المهدي

الإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

مشروع النشر الحر
الإصدار رقم ٣٤٧

إصدار: ديسمبر ٢٠١٩

منشورات دار لوتس للنشر الحر

القاهرة الكبرى:
• ١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل - قرب محطة مترو فيصل
• ١٨ ميدان المساحة - الدقي

هاتف:
01211313730 - 01091985809

الإسكندرية:
• ٦ شارع بن دينار - محرم بك - امبروزو

هاتف: 01068638377

المغرب: الدار البيضاء
• ٢٧٠ زنقة ١٦ - حي البركة - مولاي رشيد

هاتف: 0664391261

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع:
هاتف / واتس آب:
+2 01091985809
+2 01211313730

الموقع الإلكتروني
www.lotusfreepub.com

البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com

صفحة فيسبوك
FB/lotusfreepub

«حزني الوحيد هو أنني عندما أنتهي من كتابة شيء ما، أكتشف أنه ليس سوى بداية صغيرة لما أود قوله»

فرانز كافكا

مرآة كاذبة

ساربه صاحب محل التصوير الفوتوغرافي إلى غرفة التصوير، ثم أشار إليه بالجلوس قائلا:

- تفضل.. سأعود حالا

كانت غرفة مزينة ومليئة بالديكورات المختلفة للتصوير؛ أزهار، كراسي مختلفة الأحجام والأشكال، رسوم للطبيعة على الحيطان، مرايا...

عاد بآلة التصوير، واتجه إليه يعدل من وضع رأسه وكتفيه، ينحني قليلا للتأكد من ثبات وضعه، ثم يعود بضع خطوات للوراء، ويمسك بآلة التصوير: تشك.. ثم يبرز منها ضوء خاطف مرتين أو ثلاثا، ينظر إلى الصورة المجسدة على شاشة الآلة، وسرعان ما تتغير ملامحه، ينقل نظره بين الصورة وبين الشخص الماثل أمامه، ثم يقطب جبينه:

- عفوا.. سنعيد الكرة إذا سمحت..

- طبعا.. طبعا..

عدل من وضعه مجددا في حركات روتينية، ثم عاد إلى مكانه مجددا، أمسك الآلة.. ثم: تشك.. ظهر الضوء الخاطف مجددا، وانحنى على الآلة يفحصها من جديد، ظهر على ملامحه بعض الاستغراب، فبدأ يعبث بأزرار الآلة مقلبا إياها ذات اليمين وذات الشمال، وهو جالس في كرسيه ينظر إليه في تساؤل.. وأخيرا بعد فحص الآلة، يبتسم له في ود قائلا:

- لابد أن هناك خللا ما.. لا تقلق.. سنعيد الكرة.. استعد

يعدل وضعه الذي تدرب عليه بشكل روتيني، ويرفع رأسه مثبتا عينيه على الدائرة الصغيرة التي تتوسط آلة التصوير، وفجأة يغمره الضوء الخاطف، ويبقى على وضعه لثوان، حتى يسحب آلته ويبدأ في فحصها من جديد بحيرة..

- هل هناك مشكل ما..؟

- لا... لا تقلق.. ابق هنا سأعود حالا..

غاب للحظات، ليعود بعدها حاملا آلة تصوير أخرى، وهو يقول مبررا موقفه:

- لا شك أن هناك خللا في الآلة وقد غيرتها، استعد..

ضغط زر التصوير.. حاول ثانية وثالثة، لكن المشكل ظل قائما؛ في كل مرة ينقل بصره بين الصورة والشخص، ويقع في حيرة شديدة.. ثم يخاطبه أخيرا في استسلام:

- لا أدري ما الذي حصل لهذه الآلات اليوم..؟

ينهض في هدوء، وقد استقرت في ملامحه آيات الغضب:

- هل هذا معقول..؟ منذ نصف ساعة، و أنا ثابت في مكاني كالتمثال، ولم تستطع التقاط صورة واحدة لي.. ما هذا المحل السخيف..؟

خرج غاضبا وهو يصفق الباب بعنف، ثم قرر التوجه إلى بيته، قبل أن يبحث عن محل تصوير آخر، فقطع الشارع ثم سار في الجهة المقابلة.

وقف أمام باب بيته وتحسس جيبه، ليكتشف أنه لم يكن يحمل المفاتيح.. ضغط زر الجرس و انتظر، فتح الباب بهدوء.. أطلت زوجته ناظرة إليه في تساؤل..

- «ماذا..؟ ألن تفتحي.. !؟ أتتركين زوجك و اقفا بالباب؟

نظرت إليه مستغربة، ثم أحكمت الإمساك بطرف الباب:

- زوجي.. !؟ اذهب من هنا وإلا استدعيت لك الشرطة..

- ماذا تقولين.. أنا زوجك.. هل جننت.. !؟

- قلت لك اذهب..

- ما هذا المزاح السخيف.. !!؟ ألم تلحي علي لأعود وقت الغذاء.. وقد عدت من محل التصوير لهذا الغرض، فلا تجعليني أجوع أكثر..

نظرت إليه في دهشة، وهي تلحظ ملابسه وهيئته، وقد بدا عليها تصديق قوله، لكن سرعان ما عادت الصرامة والغضب إلى ملامحها:

- أقسم إن لمست هذا الباب مجددا.. سأستدعي الشرطة..

ثم أغلقت الباب في وجهه بعنف. ناداها في يأس، وهو يضرب الباب بكلتا كفيه، وكأنه لم يسمع قولها. وعندما زايلته الدهشة بعد لحظة تحسس جيوبه في سرعة وتوتر، باحثا عن هاتفه النقال، لكنه تذكر أنه نسيه مع المفاتيح في المنزل.

وقف قرب الباب يائسا، يفكر بحيرة في أمره، وعما يمكن أن يكون قد حصل لزوجته.. هل جنت فعلا؟ أيستدعي لها طبيبا؟ لكن سرعان ما طرد عنه أفكاره تلك، وتشجع مجددا كأن شيئا لم يحدث، وطرق الباب طرقتين خفيفتين ثم انتظر.. طرق الباب بقوة أكبر.. لا مجيب. ضغط زر الجرس، وتحسس بأذنه قليلا، ثم سمع رنين هاتفه بالداخل.. لابد أن زوجته تتصل به، وها هي تكتشف أنه لم يحمل هاتفه.. اتسعت عيناه لما يعنيه الموقف، إذن فهي لا تصدق أنه هو، وتتصل باحثة عنه.

وضع إصبعه لفترة طويلة على زر الجرس، ثم انفتح الباب فجأة عن صراخها وزعيقها:

- ألم أحذرك..؟؟ ألم آمرك بالانصراف.. أيها النصاب..

حاول الإمساك بها وهو يقول:

- ما الذي جرى لك..؟ اهدئي..

- لا تلمسني.. لا تلمسني..

ويبدو أن صراخها وصل إلى الشقة المجاورة، فقد خرج منها رجل بزيه المنزلي متوجها إليهما قائلا:

- ما الذي يجري؟..

- هذا الأحمق يدعي بوقاحة أنه زوجي، ولا يريد المغادرة..

نظر إليه مستغربا:

- زوجك.. !؟

ثم استدرك، محاولا رسم صورة الجار المثالي:

- قالت لك اذهب.. هيا تحرك دون مشاكل..

لم يعد يتحمل الموقف كلية، لذلك صرخ في وجهه بعنف:

- ومن أنت أيها الأحمق حتى تطردني من منزلي..؟

- منزلك !؟.. أنت فعلا نصاب وقح..

لم يدر إلا ويده تنزل على قفا الجار في سرعة وقوة.. ترنح حتى اقترب جسده من الأدراج القريبة، توجه إليه في غضب، ودفعه برجله دفعة أسقطته على الدرج، وبقع الدم بدأت تتناثر حوله، وهو يئن في ألم. تجمد في مكانه للحظات، ثم سمع ضجة قادمة من أعلى، وزوجته لا تكف عن الصراخ، أفاق من ذهوله فجأة ليدرك دقة الموقف، ثم قفز نازلا بسرعة وخوف.

بعد لحظات كان يسير في الشارع بعيدا عن منزله، يفكر في موقفه غائبا

عما حوله، ثم حانت منه التفاتة نحو واجهة محل لبيع الملابس.. ثبت في مكانه مدهوشا، ينظر إلى الصورة المنعكسة على زجاج المحل:

- ما.. ماذا أرى..؟

حرك رأسه عدة مرات، أغلق عينيه ثم فتحهما لكن الحيرة ظلت تر افقه، تحرك صوب سيارة مركونة قرب المحل، نظر عبر زجاجها ليرى صورة وجهه، فارتد ذاهلا، نظر عبر زجاج سيارة ثانية وثالثة دون جدوى، عاد إلى المحل، و اقتحمه في سرعة وتوتر. قصد غرفة تبديل الملابس، وهو لا يلتفت إلى البائع الذي يلح في سؤاله:

- إلى أين يا سيد.. هل من خدمة؟

دخل الغرفة ووقف أمام المرآة الطويلة الناصعة، نظر إلى الصورة المنعكسة فيها وكأنه ينظر إلى شخص آخر، أين اختفت العينان الصغيرتان ذواتا النظرة الحادة..؟ والشفتان الدقيقتان والأنف المعقوف؟ بل.. ما هذا الشعر الفاحم المجعد..؟.

أفاق من ذهوله وتأملاته، بعد أن هزه صاحب المحل هزات خفيفة، طالبا منه مغادرة المحل وهو يتمتم:

- إني.. إني لست أنا..

بدأ همسه يتعاظم وهو يقف في الشارع، الناس ينظرون إليه في حذر، فجأة يصبح همسه صراخا:

- مالكم تنظرون إلي.. !؟ لست أنا.. لست أنا..

• • •

الكرسي الأسود

كنت جالسا في المقهى ذاك الصباح، أقرأ مقالا في إحدى الجرائد، وأحتسي من كوب قهوة، عندما لفت انتباهي رجل جالس في مقابلي. كان الوحيد من بين كل الجالسين الذي لا يبدو منشغلا بشيء معين؛ رجل مسن اخترقت التجاعيد وجهه الأبيض، يوجه نظره إلى نقطة محددة في الفراغ، كأنه لا يعي ما يدور حوله، ولا ينتمي إلى محيطه، في مرات نادرة فقط يفيق من ذهوله، ليلتفت حوله ويستقر نظره على كرسي أسود بجانبه. وفي كل تلك المرات، كان يقوم بنفس الحركة تقريبا: يلتفت حوله وكأنه يتأكد أن لا أحد يراقبه، ثم ينظر إلى الكرسي بإمعان ويقربه إليه أكثر، ليحيطه بذراعه اليمنى كأنه يضمه خوفا عليه، وبعد أن يطمئن على كرسيه، يستغرق مجددا في تأملاته.

أشعل سيجارته الثامنة منذ بدأت أراقبه، وطلب لتوه كوبا جديدا من القهوة السوداء، يرتشف منه بهدوء، ويتلذذ باستنشاق دخان سيجارته. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بقليل؛ فكرت أن أغادر المقهى، فقد تأخرت عن موعد المحاضرة التي سألقيها.. لكن حركات الرجل استهوتني تماما، فها هو يسترخي في مقعده، ويلقي برأسه إلى الوراء محدقا في الفراغ، ولا تبدو عليه علامات الاستعداد للرحيل.

أخرجت هاتفي وتأكدت من إغلاقه، ثم أعدته إلى مكانه في جيبي، وعدت أراقب الرجل. نهض فجأة وسار في الممر الداخلي للمقهى المؤدي إلى المرحاض. راقبته باهتمام وهو يسير بخطوات سريعة حتى غاب

عن ناظري. حملت جريدتي و اتجهت نحو الكرسي الأسود وجلست. لم يغب أكثر من دقيقتين عاد بعدها مسرعا، وكأنه يتوقع التصرف الذي أقدمت عليه؛ وقف بجانبي ذاهلا، وقد بدأت أمارات الغضب تظهر على وجنتيه. دفنت وجهي في ثنايا الجريدة متظاهرا بالقراءة. كنت أسترق إليه النظر بطرف عيني، تحرك إلى الأمام قليلا ليقف قبالتي محاولا إثارة انتباهي، لكنني كنت أقلب صفحات الجريدة في هدوء، مبديا عدم الاكتراث. لبث في موقفه طويلا قبل أن أنتزع عيني من الجريدة و أثبتهما عليه؛ كان الغضب في ملامحه قد تبدد شيئا فشيئا، وحلت محله فجأة علامات الذهول واللاوعي، تأملني مليا، ثم استدار جهة الشارع وسار خارج المقهى.

مرت ساعات طويلة على رحيل الرجل، ندمت بشدة على تصرفي معه. كنت السبب في فر اقه لكرسيه، فهو لا يغادر مكانه حتى يغلق المقهى أبو ابه، ويكون أول الملتحقين به صباحا- هكذا قال لي النادل عندما سألته - لبثت في المقهى لساعتين إضافيتين أنتظر خلالهما عودة الرجل، فلا يليق أن يجلس أحد غيره على الكرسي الأسود إلى حين عودته، وقد يرفض الدخول إلى المقهى، إذا لمحني جالسا عليه، ومن يدري؛ ربما كان ير اقبني الآن منتظرا مغادرتي، قمت من الكرسي الأسود، وجلست على الكرسي الذي بجانبه أحتسي قهوتي و أنتظر، كانت الشمس قد قاربت المغيب، عندما لاحظت أن كرسي الرجل لا يتميز كثيرا عن باقي الكراسي الموجودة في المقهى، غير أنه يبدو جديدا، ورغم ذلك أقنعت نفسي بالاحتياط من أن يستبدله أحدهم، أو يحمله بعيدا عني دون أن ألحظه، لذلك بدأت ألتفت حولي لأتأكد أن لا أحد ير اقبني، ثم أنظر إلى الكرسي

بإمعان و أقربه إلي أكثر لأحيطه بذراعي اليمنى، وأستغرق في التفكير في الرجل المسن وفي كرسيه المستقر بجواري.

استفقت فجأة على صوت النادل، يخبرني بلطف أن المقهى سيغلق أبو ابه. لأنتبه أخيراً إلى أن الظلام قد عم المكان، و أنا الجالس الوحيد في المقهى. حملت حقيبتي الجلدية بعد أن دفعت للنادل، وسرت في الشارع و أنا أفكر أن أعود إلى المقهى في الصباح الباكر.

• • •

جيكو

يجلس في شرفة بيته الواسعة في ساعات الصباح الأولى، يقرأ جريدته، ويرسل بين الفينة والأخرى نظره إلى الشارع الخالي الممتد أمام بيته، تحف جانبيه شجيرات ظليلة عالية..

ها هي ذي تنعطف على رأس الشارع، يضع الجريدة جانبا، ليستمتع بمر اقبتها كعادته كل صباح..

كانت عجوزا مثله، تحمل سلة صغيرة تجمع فيها بعض الحاجيات، يتبعها كلب صغير، لا يكف عن الحركة، تقف أحيانا لتستريح تحت ظل شجرة، أو لتنتظر كلبها ليلحق بها. فكر وهو يلحظ حركاتها:

«إنها وحيدة و أنا مثلها، لابد أن نتعارف..»

لكن الهواجس داهمته: كيف تقدم لها نفسك؟ كيف تكون ردة فعلها؟..

فبدأ يفكر في محادثتها:

- مرحبا..

تومئ برأسها:

- مرحبا.

يتأمل ملامحها المتناسقة رغم التجاعيد:

- لابد أن النزهة في هذا المكان ممتعة..

- فعلا.. فأنا أقطن في الحي المجاور، و آتي إلى هنا كل صباح مع «جيكو»..

- جيكو.. !؟

- إنه كلبي هناك.. هو وفي رغم أنه مشاكس نوعا ما..

سادت بينهما لحظة صمت قطعها قائلا:

- هل تعيشين وحدك..؟

- نعم.. أعيش وحدي منذ وفاة زوجي..

رأى أنها الفرصة الملائمة للانقضاض على غرضه من الحديث، لكنها توقفت فجأة تنادي كلبها الذي تأخر عنها، كان قد دخل إلى حديقة الحي يلعب وسط العشب..

التفتت إليه:

- و أنت.. لم تخبرني عن نفسك..

- ..أنا.. أنا أعيش وحيدا كذلك.. بيتي يقبع في آخر هذا الشارع.. أحب كثيرا الجلوس في الشرفة خاصة في الصباح..

- مررت جوار بيتك عدة مرات، لمحتك خلالها جالسا في الشرفة.. من الجميل أن يستمتع المرء بهذه الفترة من حياته..

أحس بسرور خفي لقولها:

- طبعا.. لكل طريقة استمتاعه.. لكنني أود سؤالك: ألا تفكرين في شخص يزيل عنك وحدتك..؟

قالت مستغربة:

- من قال إنني وحيدة..؟

- أنت مرتبطة إذن..

قاطعته:

- لا.. لكنني أعيش مع «جيكو»، وهذا يكفيني..

قال في استنكار:

- لكن «جيكو» ليس إلا كلبا..

هنا توقفت وتغيرت ملامحها فجأة، نظرت إليه باحتقار ثم أسرعت الخطى مبتعدة عنه.

انتبه من ذهوله وهو ينهض من على كرسيه غاضبا، نظر من خلال الشرفة إلى الشارع؛ كان قد بدأ يمتلئ بالمارة وبعض السيارات، فيما لم يكن هناك أثر لـ«جيكو» ولا لصاحبته.

• • •

زيارة في منتصف الليل

لم يغمض له جفن تلك الليلة الطويلة والتي أحس بأنها لن تنتهي أبدا، منذ ساعات وهو يتقلب في فراشه كأنه يحتضر، وينتظر الموت وهو يدب في أوصاله في أية لحظة.. كان يبني عالما خاصا من الأفكار والأحلام ويهدمه في سرعة البرق، ومن حين لآخر كان يتسلى بملاحظة حركات بعض من الفئران، التي غزت غرفته بلا استئذان، وقد استرعى انتباهه أحدها وهو يرنو إليه باهتمام وربما بلا خوف، وكأنه يحاول مشاركته أفكاره وهمومه..

يستوي فجأة جالسا السرير، كما فعل عدة مرات من قبل، ودوامة من الأسئلة تحوم في رأسه.. منذ مدة ليست بالقصيرة وهو على تلك الحال؛ الأسئلة ذاتها تهز جوانبه وتقض مضجعه كل ليلة.. فمتى يجد ذلك الاستقرار النفسي الذي يبحث عنه؟ وذلك المعنى الذي يكسو حياة الكل إلا حياته هو؟ بل الأكثر من ذلك؛ إلى متى سيظل دون عمل؟ وكم من الوقت يحتاج أكثر للنوم فوق هذا السرير المتآكل، والذي سبب له أمراضا كثيرة؟.. وإيجار الغرفة الذي لم يدفعه منذ أربعة أشهر؟ يتذكر جيدا قول «السي المعطي» صاحب الغرفة بعد سيل من الوعيد والتهديد: «في المرة القادمة سأجلب لك البوليس وسيلقون بك خارجا كما تلقى الجيفة».. وسمعه وهو يتمتم خارجا: «راه كاين المخزن فالبلاد».

أحس لحظتها بطعم المرارة والامتعاض يتصاعدان إلى حلقه، فكيف

لهذه الحياة أن تجعل من رجل ك»السي المعطي» شخصا مهما ومهاب الجانب، بعد أن كان يرعى قطعان الغنم بالبادية. «يا للأقدار التي جعلتني أستأجر غرفته الحقيرة هاته». قالها بصوت مرتفع، أو هكذا خيل إليه وهو يمد يده نحو علبة سجائر فوق طاولة قريبة، ويستخرج آخر سيجارة بقيت منها. «يا إلهي حتى هذا الدخان الذي سيجعل رئتي كالفحمتين يصعب علي توفيره؟ وهذا الفأر اللعين.. إلى متى سيظل ناظرا إلي هكذا؟».

استلقى على ظهره في امتعاض، وكان قد أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها في سماء الغرفة، وخيل إليه وهو يراقبه أن أحلامه امتداد لهذا الدخان، فهي تتصاعد وتعلو وتتلاشى بعدها لتختفي تماما.

خيم على الصمت المطبق في الغرفة فجأة صوت طرقات خفيفة على الباب، وما كاد يعاود استرجاع أفكاره التي قطعها الصوت، حتى طرق الباب مرة أخرى.. إنه يعرف صاحبة هذه الطرقات، فهي الابنة الوحيدة لجاره، الذي توفيت زوجته ويسكن في البيت المحاذي لغرفته، وهي تنتظر انتصاف ليل كل يوم، لتتسلل إليه في غفلة عن أبيها العجوز. فهذه الطرقات تتكرر إذن كل ليلة، وغالبا ما تتبعها لحظات مختلسة من الحب.

أطفأ سيجارته في استياء، وظل مترددا للحظات، قبل أن ينهض من فوق السرير ويتوجه نحو الباب ليفتحه.

قالت وهي تخلص شعرها من المنديل الأحمر الذي يغطيه:

- كنت نائما؟

- كنت أستعد لذلك.

قالت في دلال: أتطيقه من دوني؟

قال بوضوح: إنني متعب اليوم؟

تقدمت نحوه بضع خطوات، وكأنها لم تسمع ما قال، وحاصرته بذراعيها البضتين، لكنه أزاحها من أمامه برفق، ليجلس على مقعد أمامه ويشعل سيجارته من جديد.

- ما بك؟

- لا شيء.. إنني متعب فقط.

وكأن قوله لم يقنعها، فأخذت مقعدا وجلست في مقابله وهي تقول:

- أصدقني القول.. هل مازلت على حبك لي؟

- ليس الأمر كذلك..

- بل هو كذلك.. لاحظت تغير سلوكك معي في الأيام الاخيرة، وكنت دائما ما ألتمس لك الأعذار.. أما الآن فأنت مطالب بالتفسير.

- أظن.. أظن أنه علينا إعادة النظر في علاقتنا..

كانت قد أدركت ما يجول في خاطره، لذلك لم تحاول مقاطعته، و أنصتت إليه في قلق وهو يقول:

- أعني.. يجب علينا أن نفترق.

اختلس منها نظرة سريعة، ليجدها غارقة في قلق مشوب بالحيرة والارتياب، وطال بهما الصمت لفترة قصيرة قبل أن تقول أخيرا:

- هل تريد أن نفترق؟.. ليكن.. لكن.. أين وعودك السابقة لي بالزواج؟ هل تظنني سأخدم ذلك العجوز الأخرق طوال حياتي؟ أين حبك القديم؟ أمازلت تحبني؟

- لا أحبك ولم أحبك يوما.. ولذلك فإن علاقتنا يجب أن تنتهي.

قالها وهو ينهض من مكانه إيذانا منه بقطع الحديث، ووقفت بدورها تنظر إليه بذهول، لكنها قالت أخيرا:

- الوداع إذن..

تمتم بصوت كالهمس، وهو يحاول إخفاء سعادته:

- الوداع.

لم يكن سعيدا لرحيلها، بقدر ما كان سعيدا لأنها وفرت عليه جهد وتعب الإقناع. مشت بخطوات ثقيلة، في حين كان يتأملها مليا وهي تتجه نحو الباب. فتحت الباب وألقت عليه نظرة أخيرة وعلى الغرفة، لتغلقه وراءها وتختفي من أمامه، فيما اتجه نحو النافذة وفتحها، ليلفحه نسيم الليل البارد، ويغطي على رائحة زائرته النفاذة التي تركتها بالمكان، وعاد إلى سريره ليسلم نفسه للتفكير في «السي المعطي» صاحب الغرفة.

• • •

سوء فهم

كانا يجلسان في مقعدين متجاورين بالحافلة، هو برأس غزته شعيرات بيضاء، ونظارات طبية، يقرأ في كسل مقالا طويلا في جريدة، هي تحمل هاتفها الذكي تراسل أصدقائها في «الواتساب»، وتنظر بمرح بين الحين والآخر من النافذة إلى الحقول والسهول في الخارج. ترفع رأسها عن هاتفها، وترسل تنهيدة طويلة:

- ما أشد حرارة الجو.. ثم وهي تنقل بصرها بينه وبين الجريدة:

- إنك تحب القراءة..

قال ناظرا إليها بخجل:

- أجل.. ثم رد بصره بهدوء إلى جريدته

عادت إلى هاتفها المحمول، دون أن تعبأ بتعابير وجهه التي تغيرت فجأة، فها هو يغلق صفحات الجريدة، وينزع نظاراته، ثم يسترق إليها نظرة أخرى سريعة خجولة، كانت شابة في الثانية والعشرين أو أقل، ملامحها تنضح بالحياة، أدار رأسه عدة مرات، دون أن ينظر إلى شيء محدد، كأنه يعلن تفرغه للحديث مجددا، فيما كانت لا ترفع رأسها عن شاشة هاتفها، أحس بالندم من عدم مبادلتها الحديث، وانتظر مليا أن تعود لمخاطبته.

أخيرا قطعت الاتصال بالأنترنيت، ووضعت الهاتف في جيبها، أحس بفرح خفي وانتظر بلهفة أن تلتفت إليه، لكنها أدارت رأسها إلى الجهة المقابلة، وظلت تنظر عبر النافذة، لعن موقفه وحظه، وتساءل في دواخله عما

يمنعه من مبادرة الحديث، الذي لا يعدو أن يكون مجرد كلمات عابرة.

استجمع شجاعته وقال ناظرا إليها:

- هل.. هل تحبين السفر..؟

التفتت إليه، وقد اكتشفت أنه يوجه إليها الحديث:

- ماذا قلت..؟

- هل تحبين السفر؟

عادت إليها حيويتها وهي تقول:

- أجل.. بالطبع..

- لقد زرت عدة مدن ومناطق، فأنا أحب السياحة، وزيارة المناطق الجبلية خاصة..

قالت بفرح طفولي:

- كم أحب المناطق الجبلية..

سر بتجاوبها مع حديثه:

- حقا.. ؟؟

تومئ برأسها في لهفة، فيما استدرك:

- ..كنت مرة في رحلة مع بعض الأصدقاء، إلى سلسلة جبال عالية مغطاة بثلوج كثيفة، صعدنا إلى الجبل وكانت درجة الحرارة تحت الصفر، تجمدت أطرافنا قبل أن نصل إلى قمته، قضينا نهارا بطوله في المسير، وكلما أحسسنا بالتعب.. صاح بعض الأصدقاء: انظروا إنها القمة هناك.. لا تيأسوا. فنواصل السير مجددا في حزم، بدأنا نقترب من القمة، لذلك فقد أسرعنا أكثر، نحث ما تبقى لنا من جهد. كادت أنفاسنا تتوقف ونحن نصل أخيرا.. ألقينا أجسادنا المرهقة على البياض

الناصع ونحن نلهث.. وفجأة سمعنا أحد الأصدقاء يصيح: انظروا.. انظروا..

نظرنا إلى حيث يشير، لكننا لم نتبين شيئا، فقد كان يقف بعيدا عنا، اضطر بعضنا للوقوف بتثاقل والسير إليه.. وقفنا بجانبه وهو مازال يشير بيده؛ كانت مفاجأة، فما ظنناه قمة.. كان مجرد سفح، يطل على منحدر صغير، يؤدي إلى طريق ممتدة، تنتهي بقمة الجبل الحقيقية..

اتسعت عيناها في دهشة:

- لابد أن هذا الجبل لا نهاية له.. وهل وصلتم أخيرا إلى القمة..؟

- لم نصل إليها ذلك اليوم.. لكننا عدنا إلى الجبل في رحلة أخرى..

- عدتم إلى الجبل..!!

- طبعا.. فنحن لا نستسلم بسهولة..

قالت بإعجاب:

- وصلتم إلى القمة إذن..؟

- صعدنا الجبل مرة أخرى.. لكننا لم نصل إلى قمته حتى اليوم..

انفجرت ضاحكة، وهي تلقي برأسها على المقعد، ولم يتمالك نفسه، فانخرطا معا في سلسلة ضحكات أثارت انتباه الركاب إليهما.

لحظ تجاوبها مع حديثه، فبدأ يحكى لها عن أسفاره وتنقلاته وما شاهده فيها، ومو اقفه الطريفة والمضحكة. وفي لحظات اندمجت مع الموقف، و أنصتت إليه في اهتمام وإعجاب، وبين الحين والآخر ترسل ضحكات خفيفة، تجعله يسترسل في حديثه بحماس، وكانت تقطع حديثه أحيانا بسؤال أو عبارة إعجاب، تزيد انغماسه في الموقف تماما، وقد أحس للحظة بأن لا أحد غيرهما في الحافلة، وأن شبابه قد عاد إليه كليا.

وصلت الحافلة إلى المدينة، ثم دخلت المحطة وتوقفت لينزل الركاب، كان مستمرا في حديثه عندما وقفت الفتاة، والتفت ليلاحظ وقوف الركاب استعدادا للنزول، انتبه لموقفه وحمل حقيبته الصغيرة، وقد تمنى لو لم يصل أبدا، فكر بسرعة أنه لابد أن ير افقها إلى وجهتها، وألا يتركها. نظرت إليه فاغرة فاها عن ابتسامة:

- لقد وصلنا.. استمتعت بالحديث إليك حقا..

- نعم.. نعم.. و أنا أيضا..

ثم مرت قربه ملوحة بيدها:

- وداعا..

قصدت باب الحافلة، وقد تسمر في مكانه، ولم يدر ما يقول أو يفعل، لكنه استجمع كل شجاعته وصاح قبل أن تصل الباب:

- ألن نلتقي مجددا..؟

التفتت إليه وقالت:

- طبعا.. طبعا.. سجل رقم هاتفي..

أخرج هاتفه من جيبه بسرعة وتوتر، وكأنه يخشى أن تغير رأيها.. ثم قالت مكملة حديثها، بعد أن سجل الرقم:

- من المفيد التعرف على شخص مثلك.. استمتعت بحديثك، فقد ذكرتني كثيرا بوالدي..

ثم قالت متوجهة إلى الباب:

- إلى اللقاء..

• • •

مراقبة

كان ينظر من نافذة المنزل، لمحها قادمة كعادتها اليومية، بردائها الفضفاض الطويل ومشيتها المتثاقلة، وملامحها المتجهمة. تشاءم من مقدمها، وفي لحظة غالبه إحساس بالنفور والكراهة أفسدا عليه مزاجه، فتذكر قول صديقه وهما يمران قربها:

- أنا أشك في نظراتها..

كانت تجلس واضعة صحنا صغيرا، يلقي فيه بعض المارة عملات معدنية من باب الصدقة. أجابه في تساؤل:

- وماذا يعني هذا؟

- ربما لها غاية أخرى غير التسول..

قطب جبينه مستزيدا، فأردف صديقه باسما:

- أنت أعرف مني بهذه الأمور.. إنها تقوم بوظيفة رسمية، وقد تتلقى مقابلها أجرا..

استعاد الحوار في ذهنه وجملة من الأسئلة تلح عليه؛ ماذا لو كان تقدير صديقه صحيحا..؟ أليس المستهدف الأول في حيه؟ وفي لحظة أحس وكأن الهواجس تحاصره وتخنقه. أخذ جاكتته ثم خرج إلى الشارع.

كانت قد استقرت في مكانها المعتاد فوق الرصيف المقابل لشرفة منزله، تنظر إلى المارة بجمود، وتنتظر في صبر كرم بعضهم. وقف قريبا منها، ثم أخرج هاتفه، وكأنه يجري مكالمة أو ما شابه، اتكأ على جدار أحد المباني ووقف يراقبها، إنها تنظر إلى الجميع، ولكنها تبدو كمن لا ينظر إلى شيء،

نظراتها جامدة ثقيلة. فجأة ترفع بصرها بهدوء إلى أعلى، كأنها تنظر إلى نو افذ المنازل. ندت عنه نظرة استنكار، إلى ماذا تنظر يا ترى؟ هل خمنت جلوسه في الشرفة؟ أم أنها ر أته عندما كانت قادمة، وتبحث عنه الآن لتضعه تحت بصرها؟

قطع حبل أفكاره رجل عجوز وقف أمامها مغطيا صورتها، بحث في جيوبه جاهدا عما ينقدها إياها، ثم أفرجت يده عن قطعة معدنية، وضعها في الصحن دون أن ينظر إليها، وسار ببطء مبتعدا. نظرت إلى القطعة مليا ثم وضعتها بين ثنايا ثوبها، واستبدلتها بعدة قطع أخرى صفراء، سمع رنينها وهي تلقيها في الصحن، وتعود إلى مر اقبة الشارع والمارة في كسل.

لابد أنها تر اقبه، كل حركاتها تشي بذلك، ترفع بصرها مجددا إلى نافذة غرفته، إنها تنتظر أن يبدو منها، لكن هيهات، فهو الذي ير اقبها الآن وليس هي. تساءل في نفسه؛ لماذا لا تستجدي المارة وتستعطفهم كما يفعل المتسولون؟ إنها لا تكلف نفسها حتى عناء شكر من يعطف عليها، ألم تر كيف تصرفت مع الرجل العجوز!!؟ ظلت تنظر إلى يده، حتى امتدت إلى جيبه ثم إلى الصحن، لم ترفع إليه بصرا حتى، لاشك أنها ترفع تقارير يومية إلى من يهمهم أمره.

قرر فجأة أن يغادر مكانه، فاستوقفته حركاتها، نظرت حولها يمينا وشمالا، ثم أخرجت هاتفا محمولا رخيصا ضغطت بعض أزراره بتثاقلها المعهود، رفعته إلى أذنها وبدأت بالحديث. ير اقبها بقلق؛ شفتاها تتحركان من حين لآخر، ملامحها الجافة لا تتغير، تحرك من مكانه بحذر، ثم اقترب من مجلسها، ليلصق جسده بسيارة على مقربة منها،

ويصيخ السمع في ضجر، لم تصله إلا همهمات متقطعة، لم يميز منها شيئا، منعه ضجيج محركات السيارات، وصياح أطفال يلعبون قربه من الاستماع، انتظر حتى سكن الشارع قليلا، ثم اقترب بأذنه يستمع.. وفجأة قطع الصمت المؤقت صفير حاد صك أذنيه، التفت بامتعاض صوب مصدر الصوت. كان شابا غريب تسريحة الشعر، يرتدي لباسا غير متناسق الألوان، يصفر بيد في فمه، ويرفع اليد الأخرى مشيرا بها في الهواء، وهو يسير وسط الشارع تنبهه أبواق السيارات المزعجة غير عابئ بها. نظر إليه مليا، ثم شتمه في سره شتيمة حملت كل مشاعر الغضب التي اجتاحته، حول بصره إلى المرأة؛ مازالت تتحدث في الهاتف، حركاتها توحي بقرب انتهاء الحديث، كانت فرصته الأخيرة؛ جمع كل تركيزه في أذنيه، وأغلق عينيه متناسيا الضجيج المحيط به. التقط سمعه أخيرا كلماتها الأخيرة:

- كن مطمئن البال.. سيدي..

ارتد ذاهلا وهو يسمع عبارتها الأخيرة، وغاص قلبه في صدره.. أصاخ السمع من جديد، لكنها كانت قد قطعت الاتصال، ووضعت الهاتف بين ثنايا ردائها. مع من كانت تتحدث هذه المرأة المشؤومة يا ترى؟ وماذا تقصد بقولها «كن مطمئن البال»؟..

كان العرق قد بدأ يبلل جبينه وبعضا من أطرافه، انتبه لموقفه فجأة، وتحرك من مكانه في بطء وحذر حيث لا تراه. حانت منها التفاتة مفاجئة صوبه، فألقى جسده في خفة وسرعة خلف جذع شجرة لاهثا. يا إلهي ماذا لو رأتني وأنا أراقبها..؟ قد يغيرون من خطتهم، وقد يراقبونه بطرق أخرى. أعياه التفكير والخوف، ثم انتظر قليلا حتى تاهت نظراتها

بين المارة، ثم مرق من مكانه يسابق الريح.

كان يجلس في مقابلها متخفيا، وهو يرسل نظرات باهتة، عندما رن هاتفه. أخرجه من جيبه دون أن يحول نظره عنها، ثم جاءه صوت صديقه من السماعة معاتبا:

- ..أين كنت.. لا أجدك في مقر الحركة، ولا في منزلك.. ولا ترد على مكالماتي.. ماذا جرى لك..؟

بدا وكأنه لم يسمع حرفا مما قال، لكنه قال بعد صمت:

- أنا.. أنا في.. ماذا تريد..؟

- ماذا أريد..؟ أنسيت أن اليوم موعد الاجتماع.. أنت تعلم أننا سنناقش مواضيع هامة.. مثل..

أنهى المكالمة ووضع الهاتف في جيبه بهدوء، ثم أخرجه بعد لحظة؛ تأمله قليلا ثم رمى به بعيدا. كان المارة ينظرون إليه باستغراب، وقد أسند رأسه إلى حائط بجواره، وركز بصره على المرأة، وكأنه غائب عن الوعي..

• • •

انتظار

منذ نصف ساعة تقريبا وهي جالسة على الكرسي في الحديقة الواسعة تنتظر، تستخرج من حقيبتها اليدوية أحمر شفاه ومرآة صغيرة، تضعه على شفتيها في مهارة ودربة، ثم تعيد أغراضها إلى الحقيبة وهي تتنهد في قلق.

كانت فتاة في مثل سنها قد دخلت الحديقة وسارت باتجاهها، تمنت في أعماقها ألا تبادر بالجلوس قربها على الكرسي، لكن الفتاة خيبت ظنها؛ سارت بخطوات واثقة حتى حاذتها، ألقت عليها تحية ثم جلست بجوارها. فكرت في النهوض، لكن كل كراسي الحديقة حجزت. ألصقت جسدها بالكرسي في يأس وهي تسترق إليها نظرة ناقمة، أية رياح هوجاء حملت هذه اللعينة إلي، منذ الصباح الباكر وأنا أدرس المكان لأختار الموقع المناسب للقاء، وهذه الحمقاء ستفسد علي موعدي لا شك. كان ينبغي علي أن أضع على الكرسي لافتة بخط واضح: «مكان محجوز» أو «ممنوع الجلوس»..

ابتسمت لخواطرها السخيفة تلك، وقد زايلها القلق الذي كان ينتابها قبل لحظات. نظرت إلى ساعتها الأنيقة؛ كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحا، مرت ساعة إلا ربع، ولم يأت بعد، اتصلت به قبل لحظة ولم يرد، أتكون المواصلات قد أخرته؟ أم أن الزحام اشتد في الطريق وهو سائق سيارته..؟ ندت عنها صيحة خافتة لخاطرها ذاك.. لقد نسيت أن أسأله إن كان يملك سيارة، أسرعت إلى فتح حقيبة يدها، وكأنها تذكرت

شيئا.. أخرجت هاتفها الذكي لتصله بالانترنيت.. فتحت حسابها على «الفايس بوك»، ثم بدأت تبحث بين صوره الشخصية؛ كانت صورا له على الشاطئ.. في العمل.. مع أصدقائه في مطعم.. لا يوجد أثر لصورة له مع سيارة أو ما شابه. قطبت حاجبيها كأن أملها قد خاب. نظرت إلى ساعتها من جديد في حركة روتينية، تملكها الضجر، نظرت إلى الفتاة بجانبها؛ كانت تسند ظهرها إلى الكرسي في هدوء، وتحمل بين يديها هاتفها المحمول تراسل أصدقاءها، ثم وضعته فجأة في جيبها، وكأنها أحست برغبة جارتها في الحديث، بادرتها قائلة وهي تلحظ قلقها:

- ..تأخر عن الموعد.. أليس كذلك..؟

تأملتها لحظة في وجوم، لكنها قالت في استسلام:

- بلى.. منذ ساعة تقريبا و أنا أنتظره..

ابتسمت في ود:

- لا تقلقي.. كلهم يتعمدون التأخر في الموعد الأول، كي يكسبوا احترامنا..

- أتظنين ذلك..؟؟

- طبعا.. طبعا.. منذ فترة طويلة و أنا أواعد الشبان.. أصبحت لي خبرة بنفسياتهم وسبل تفكيرهم.. كان عليك أن تجعليه هو المنتظر، ولا تبدي أي قلق أو ارتباك من تأخرك.. وفي حالك هاته؛ يجب ألا تظهري سعادتك برؤيته، بل وبخيه على تأخره..

كانت تنصت إليها في اهتمام موسعة حدقتي عينيها. بادرت مكملة حديثها بعد أن لاحظت اهتمامها:

- هناك معلومات أخرى يجب أن تعرفيها بعد ربط العلاقة به.. يمكنك أن تسجلي رقم هاتفي.. ستحتاجينني بعد هذا الموعد ولاشك، أخرجت

هاتفها بسرعة، وسجلت رقم هاتفها وهي تدمدم بعبارات الشكر.
ساد بينهما الصمت بعدها، فقد غرقت أعينهما في شاشة هاتفيهما، أما هي؛ فقد تناست موعدها وقلقها و انخرطت في محادثة جديدة؛ كان شاب وسيم قد أرسل إليها لتوه طلب صداقة، وبدأ يحادثها؛ كان يسألها عن شخصها واهتماماتها، جذبها أسلوبه في التعبير، وكانت تبتسم بين الحين والآخر.. عبر لها عن إعجابه، و أنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ مدة، ثم طلب منها أن تحدد موعدا ليراها، لم تكن لترفض طلبه، لكنها تذكرت موقفها الحالي فجأة، والتفتت إلى الفتاة تسألها كيفية الرد على المعجب الجديد، لكنها فوجئت مما رأت؛ كان رجل عجوز وزوجته يجلسان قربها، يتقاسمان كعكة يبدو أن الزوجة أعدتها، وهما يتضاحكان. التفتت في ذهول حولها، ثم نظرت إلى ساعتها؛ كانت عقاربها الصغيرة تشير إلى الثانية بعد الزوال.

• • •

السور

نظر إلى ساعته الذهبية في سرعة وارتباك، كانت تشير إلى العاشرة إلا ربع صباحا، أجال بصره يستكشف المكان ثم.. اتسعت عيناه في فزع.

كانت سيارته قد أصابها عطل مفاجئ، فاستقل سيارتي أجرة أخرتاه عن موعد اجتماع مجلس إدارة الشركة، فقد انتظر في الطابور طويلا، وحتى عندما وصل دوره وتلكأ في الصعود قليلا إلى السيارة، سبقه بعض الغوغاء دون أن يعيروه اهتماما، ولم يلتفت أحد من الواقفين إلى احتجاجه الصامت، فتيقن أن الأمر عرف لدى القوم، فشد على حقيبته الجلدية في حزم وغضب، و انتظر سيارة الأجرة القادمة، ليندفع في سرعة وخفة عند وصولها جالسا في المقعد الأمامي.

وصل السائق إلى محطة سيارات الأجرة، نزل ثم استقل سيارة أجرة صغيرة، وهو يمني النفس بالوصول مسرعا إلى مقر الشركة، كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق.. موعد الاجتماع في التاسعة، والمدة التي تفصله عن مقر الشركة عشرون دقيقة، سيتأخر لا محالة وسيؤنبه مدير الشركة، منذ أشهر وهو ينتظر هذا الاجتماع، ليقدم مشروعه الجديد أمام الشركاء الأجانب وأعضاء مجلس الإدارة، أغمض عينيه في قلق وتوتر عندما جالت في ذهنه هذه الخواطر، ثم التفت إلى سائق السيارة البدين:

- أسرع.. أسرع..

قطب السائق حاجبيه ونظر إليه في غضب، وفي لحظة تناقصت سرعة السيارة تدريجيا، لتسير ببطء. رمقه في استنكار قائلا:

- ألا تزيد من سرعة السيارة قليلا.. !!؟

طال الصمت بالرجل، ليجيبه بعد فترة قائلا:

- كلكم هكذا يا أصحاب البدلات وربطات العنق.. تظنون أن كل شيء لكم.. حتى الشارع وسيارات الأجرة.. لن أستغرب إذا حاولتم امتلاك الهواء الذي نتنفسه..

استغرب ردة فعله المفاجئة، وهم بالرد عليه، لكنه آثر ألا يعيقه شيء عن مقصده. قال في هدوء:

- من فضلك.. إنني متأخر عن موعد مهم.. وستزيدني تأخيرا بتباطئك..

انبسطت أسارير السائق فجأة، وندت عنه ابتسامة ماكرة:

- اها.. موعد.. وتريد أن تصل في الوقت.. لا تقلق سيكون هذا مثيرا..

ثم انعطف على زقاق جانبي وقد زاد من سرعة السيارة، والتي بدأت تلتهم الطريق بين الأزقة، حتى وصل إلى شارع تؤدي نهايته إلى الجزء الجنوبي للمدينة..

اتسعت عيناه دهشا فصاح به:

- إلى أين.. إلى أين تسيربي..؟

- قلت لك لا تقلق.. سنقوم بجولة قصيرة في بعض أحياء المدينة.. سيكون هذا ممتعا.. أليس كذلك..؟؟ هاهاها..

تجمد في مكانه للحظات، ثم أمسك بناصية رأسه في استسلام، إلى أين يذهب بي هذا الأحمق. ماهذه الأقدار التي ألقتني في طريقه !.

تنفس بعمق، ثم التفت إليه في هدوء:

- أنصت.. سأدفع لك ما تشاء.. أرجوك انعطف الآن وعد فقد تأخرت..

ضحك السائق في سخرية:

- ألم أقل لك.. كلكم تفكرون هكذا.. كل شيء يمكن أن تشتروه بالمال.

ثم أكمل بجدية مصطنعة:

- لكنني الآن في الطريق إلى وجهتك، أحببت فقط أن أجعلك تتجول قليلا، وتشاهد الناس والحياة في المدينة.

غض بصره في يأس، وهو يلعن الظروف التي جمعته بهذا الغبي، وتمنى للحظة لو ينقض عليه ويخنقه بيديه..

توقفت السيارة فجأة في مكان شبه خال، قرب مباني بيوت كبيرة متفرقة. نزل السائق ثم استدار حول السيارة، فتح الباب ثم جر جسده النحيل وألقى به خارجا:

- استمتع بوقتك أيها الرسمي.. بالمناسبة.. ستسير من هذا الاتجاه لمدة ربع ساعة، وهناك يمكن أن تستقل سيارة أجرة تقلك إلى عملك.. أتمنى ألا تتأخر عن موعدك ..هاها..يوما طيبا..

نفض عن ملابسه الغبار الذي طالها، وهو يتابع السيارة في غضب. وقف ثم أجال بصره في الأرجاء.. ماهذا المكان يا ترى؛ بيوت واسعة مسورة تبدو كالمهجورة، تحيط بها أراض خالية، يمد بصره بعيدا ..كانت هناك بعض الأشجار والعشب يحيط ببحيرة صغيرة. تسمر في مكانه فجأة وقد أثارت هذه المشاهد صورا في ذاكرته.. رأيت هذا المكان من قبل.. لكن مهلا.. ثم تذكر فجأة أن هذا المكان خارج المدينة قضى فيه جزءا من طفولته المبكرة، حيث كان يصطحبه أبوه في بعض أيام العطل المدرسية ليستمتع بالمكان.

نظر حوله في ذهول، فاسترعى انتباهه سور عال لإحدى البيوت المنتشرة بالمكان، اقترب منه، كانت تحفه أشجار باسقة من التفاح والرمان. عادت به الذاكرة إلى طفولته، عندما كان يتسلل إلى السور ويتأمله في إعجاب ومهابة، لكنه قرر ذات يوم أن يعتليه، بحث عن ثغرة فيه، ثم استعان ببعض الأحجار وجذوع الأشجار، ليصعد بعد مشقة ويتعلق بأغصان شجرة تفاح قريبة، أثاره منظر حديقة البيت الداخلية، لكنه لم يجرأ على القفز إلى الداخل. اكتفى بجمع بعض التفاح والرمان من الشجيرات القريبة ونزل عائدا. اعتاد بعد ذلك أن يقطف الثمار في غفلة من أهل البيت.

اقترب من السور، وقد أطربته الذكريات. كان هاتفه لا يكف عن الرنين، أخرجه من جيبه؛ يتصل به الرئيس تارة ونائبه وأصدقاؤه الموظفون تارة أخرى. يغلق الهاتف، ثم يجرده من بطاريته ويضعه في جيبه، يرفع رأسه متأملا السور في نشوة، وقد أحس براحة عميقة تجتاحه فجأة. خلع سترته وحذاءه الجلدي، ثم دار حول السور يبحث فيه عن ثغرة يصعد منها..

• • •

يوم في الميناء

يرسو مركب الصيد الضخم في الميناء، تتحلق أمامه جموع من الصيادين والباعة المحترفين والفضوليين، للتفاوض حول السلعة الجديدة، يستغل الموقف ليقفز في رشاقة تتناسب مع سنه داخل المركب، ويربض قرب إحدى أعمدته، منتظرا إخراج الصيادين صناديق السمك من فوهة المركب.

تتعالى أصوات الصيادين وصياحهم حول جودة السمك وثمنه، بسحناتهم التي استمدت صلابتها وعمقها من طول معاشرتهم للبحر. يستخرج صياد قربه أول صندوق مليء بسمك «البوري» الطازج، يقدمه لزميل له في خفة ومهارة، فتتداوله الأيدي حتى يصل إلى الرصيف قرب المتحلقين، تتسع عيناه فرحا، فالمركب اليوم خال من الفتيان أمثاله، وها هي أسماك «السردين» و«البوري» بلونها الفضي المثير تتناثر حوله. ينقض عليها بسرعة وخفة، ويضعها في كيس بلاستيكي أعده سلفا. مرت نصف ساعة.. الكيس قد امتلأ، يفكر في إخراج كيس آخر لملئه. لكنه تذكر أعين الفضوليين التي لن تتركه في سلام، وقف فجأة ثم انسحب في هدوء تاركا المركب، وقد جاهد في إخفاء الكيس آثرا السلامة.

سار على رصيف الميناء ببطء، يبحث عن مكان مناسب أو زبون لبيع غنيمته، ثم لمح مركبا آخر قادما من عرض البحر، أسرع إلى بناية في الميناء اعتاد أن يخفي فيها حاجياته. خبأ الكيس بعناية ثم خرج قاصدا المركب، جلس مجددا في المركب يجمع الأسماك التي تسقط سهوا من

صناديق الصيادين، انهمك في عمله لفترة، ثم انتبه إلى غياب أقرانه الفتيان الذين تمتلئ المراكب بهم.

مد بصره إلى مراكب قريبة تحمل أسماء سخيفة، كانت على غير العادة خالية منهم.. ماذا جرى يا ترى؟ هل هجروا الميناء إلى مكان آخر..!؟ نسي تساؤلاته وهو يملأ كيسه الثاني في ذاك المركب، فلم يطق صبرا ترك كل ذلك السمك متناثرا على أرضه.

غادر المركب الثاني محملا بالكيسين، وكان ينتظر بين الحين والآخر قدوم مركب جديد، يقفز إلى ظهره ثم يعود بعد فترة وملامحه تطفح بالبشر.

سار إلى مخبئه وقد أعياه الجوع ولفحت وجهه أشعة الشمس، جمع أكياسه ليخرج بها بائعا فوق رصيف الميناء، ثم فضل بعد تفكير أن يقسم بضاعته على دفعات، خوفا من تعرضه للنهب، فقد كان معروفا في الميناء-على غير العادة- بلطفه و ابتعاده عن الصراع، وكان يحصل يوميا أسماكا أكثر مما يفعل الآخرون، لذلك كان عرضة للاعتداء من أقرانه رغم صغر سنهم.

رتب بضاعته فوق أرض الميناء بعيدا عن أماكن تجمع الباعة، ثم بدأ الزبناء يتحلقون حوله؛ يسألونه أحيانا عن الثمن ويساومونه في حدة أحيانا أخرى، فيما لم يعر اهتماما بتعليقات آخرين لم يعجبهم الثمن، متهمين إياه بمحاولة «الاغتناء» من سمك وجده ملقى على ظهر المراكب.

بعد ساعات، كانت البضاعة قد نفدت، إلا من بضع أسماك حملها معه إلى كوخه ليشويها لعشائه. خرج من الميناء، وسار إلى كوخ مهجور قرب الشاطئ اعتاد أن يبيت فيه، وهو يتفادى الأحجار بحذائه البلاستيكي.

دخل إلى الكوخ؛ من حسن حظه أنه خال من المتشردين الليلة، وضع

كيس الأسماك جانبا، ثم انتحى يبحث في جيوبه عن العملات المعدنية والأوراق النقدية التي جمعها طيلة اليوم، وضعها في منديل أمامه، ثم بدأ بالعد. كان مجموع ما حصله ذاك اليوم: مائتي درهم.. اتسعت عيناه دهشة وفرحا، لم يحصل على مثل ذلك المبلغ منذ سنين من عمله ذاك، أكبر مبلغ جمعه في يوم عمل كامل، كان ستين درهما.. «يا إلهي.. لقد صرت من الأغنياء» صاح مع نفسه وهو يفكر في شيء مميز يفعله بذاك المال، ثم حانت منه نظرة إلى حذائه البلاستيكي الأزرق، كان ممزقا، منذ فترة وهو يجمعه بخيط، بشكل عشوائي غير متناسق. «لابد أن أقتني حذاء رياضيا وسروالا جديدا.. سأشتري دجاجة مطهوة كاملة مع قطع البطاطس المقلية..» ازدرد ريقه وأحس بأمعائه تتحرك لخاطره ذاك، ثم أثار هذا رغبة أخرى لديه.. كان يسكنها من حين لآخر بطريقة أو بأخرى، لكنه يملك المال الآن.. ثم قطعت تفكيره فجأة أصوات أقدام تتلاحق قرب الكوخ في بطء وثقة. أصاخ السمع للحظة، ثم انتفض و اقف وهو لا يدري ما يصنع. جمع المنديل بما فيه بسرعة وخوف، وبحث عن مخبأ في الجدار، اعتاد أن يخفي فيه حاجاته دون جدوى.. فكر في الهرب، لكن لا وقت لذلك، سيلحقون به ويمسكونه حتما، اعتمد بركبتيه على أرض الكوخ وحاول الحفر.. فتح الباب الخشبي المهترئ فجأة.. رفع رأسه في خوف والمنديل ما يزال في يده، كان الفتيان كلهم يقفون أمامه: «حميدة» «الطاباكي» «الفار»...وآخرون ممن يجمعون السمك من المراكب.. «اتحد الأوباش إذن..». ثم تكلم زعيمهم، فيما انقض عليه الآخرون ينتزعون منه المنديل، ويبحثون في جيوبه وبين أغراضه:

- أتظننا مغفلين يا «لوبيا».. تجمع كل السمك وتبيعه وتحصل المال..

ماذا نبيع نحن.. !؟

كانت دموع اليأس والألم، قد بدأت تتساقط من عينيه وهو يتابع حركاتهم..

- انظروا إليه.. إنه يبكي.. هاهاها

ثم انطلقت القهقهات والصياح، التفت إليهم زعيمهم. كانوا يتحلقون حول «حميدة» الذي يعد النقود فقال بحزم:

- ابتعدوا عنه أيها الخنازير.. ثم خاطب «حميدة»..:

- كم عددت..؟

- ..مائتي درهم..

انطلق الصفير يملأ جنبات الكوخ، فيما كان بعضهم يقفز ويضحك في فرح. حزم الزعيم المنديل ثم وضعه في جيبه، و انحنى عليه وهو ما يزال على الأرض، قرصه في خده ثم قال في سخرية:

- نشكرك لكرمك أيها اللطيف.. كنا نود منحك مستحقك، لكن كما ترى.. فنحن كثر.. ثم وقف وهو يصفعه في وجهه مقهقها..

انطلق الآخرون وكأنهم كانوا ينتظرون الإشارة، فأشبعوا في جسده ركلا ورفسا. خرج الزعيم ثم تبعه رفاقه شيئا فشيئا حتى خلا الكوخ.

نظر إلى أرجائه التي عاد إليها الهدوء، كان الألم يجتاح كل أعضائه، حاول الوقوف فأبصر عملة معدنية مرمية قرب الباب، أسرع إليها وهو يتعثر. نفض عنها الغبار ثم تأملها: كانت درهما واحدا..

• • •

اختلاف

يجلس في مقهى الفندق الصغير المطل على الشارع، يستمتع بتأمل منظر البيوت الصغيرة المتجاورة، والمبينة على قمة جبل فسيح، ينفخ أحيانا في يديه مستثيرا بعض الدفء، فقد كان الجو باردا، رغم تباشير الصباح، التي تلقي بأشعة الشمس على أسطح المباني والأرصفة وواجهات المحلات.

كان قد وصل إلى تلك المدينة الصغيرة مع صديقيه منذ أسبوع، أحدهما غادر منذ يومين، والآخر مازال يعاتبه على إصراره المكوث وقتا أطول، في تلك المدينة الجبلية الباردة. كان كثير التذمر من برد المدينة القارس، لذلك فهو ما يزال نائما في غرفة الفندق، متدثرا بكل الأغطية التي وصلت إليها يداه.

نظر إلى ساعته؛ كانت تشير إلى الثامنة. بعد دقائق سيلمحها قادمة إليه من رأس الشارع، في خطوات خفيفة وبابتسامتها المعهودة، لم يسبق لها أن تخلفت أو تأخرت عن موعد لهما، منذ اليوم الثاني الذي تعرف فيه عليها، كانت شقراء ناصعة البياض، كما يليق بمثيلاتها الأوروبيات، في عينيها زرقة كزرقة مياه البحر..

لم ينس ذلك اليوم، عندما كان جالسا في نفس مجلسه مع صديقيه، يحاورهما ويراقب الشارع والناس؛ لمحها نازلة رفقة صديقاتها من سيارة أجرة، تحمل حقيبة مليئة بأغراض السفر والترحال، نظر إليها مليا، ثم لحظ أنها بدأت تسترق النظر إليه.. غاب وعيه عن صديقيه،

ثم بدأ يتبادل معها نظرات خجولة، كان صديقاه يتحدثان عن المناطق التي يمكن زيارتها، حيث كان «يوسف» يرفع كوب شاي ساخن إلى فيه، وهو يقول بتأفف:

- رأيي أن نعود في أسرع وقت.. فالجو هنا لا يطاق..

نظر إليه «أحمد» بجمود:

- لا أستطيع فهمك حقا.. ألم تصر على زيارتنا لهذه المدينة بالذات..؟

لمس في احتجاجه موافقة مبطنة، لذلك استغل الموقف قائلا:

- حسنا.. يمكن أن نغير وجهتنا، سنقضي يوما آخر على الأكثر، مادامت هذه المدينة مملة وباردة هكذا..

ثم حانت من «يوسف» التفاتة إليه، فوجده ساهما:

- ما رأي صديقنا الساهم..؟

لاحظا فجأة شروده. قال «أحمد» بسخرية:

- هناك شخص على الأقل تعجبه هذه المدينة..

أفاق من شروده، وحاول أن يبدو طبيعيا، رشف من الكوب ثم نظر إليهما بعتاب خفي:

- سأترككما الآن، سأصعد إلى الغرفة، لدي عمل أنجزه أولا..

التفتا إليه معا، فقال «يوسف» -وقد عاد إليه حس الدعابة-:

- أتمنى ألا تكثر أعمالك في هذه المدينة..

ابتسم ابتسامة سريعة، توجه بعدها إلى باب الفندق وهو يلتفت إليها، كانت لاتزال في مكانها تنظر صوبه، خفق قلبه بشدة، ثم أولج يديه في جيب سرواله، باحثا عن المفاتيح.

دخل إلى الغرفة، وجملة من الأفكار والأسئلة تتداخل في رأسه.. جلس

إلى الطاولة الصغيرة المركونة قرب سريره، ثم أخرج دفترا وقلما، وبدأ يكتب.

«اليوم الثاني:

أعتقد أنني أحببت هذه المدينة الصغيرة حقا، الأمور فيها مختلفة كثيرا؛ سكانها، مبانيها، أزقتها، وحتى سياحها..».

توقف قلمه عند هذه الكلمة، ورفع رأسه يفكر في موقفه بالمقهى، ثم عاد إلى الورقة يكتب:

«..لا أستطيع تجاهل نقطة الضوء التي غمرتني هذا الصباح عندما كنا جالسين في المقهى، صحيح أن هذا الإحساس ظل ير افقني منذ وصولنا إلى المدينة، لكن الأمر هذا الصباح يختلف كثيرا..»

توقف عن الكتابة فجأة، وكأنه تذكر شيئا هاما، وقف ليفتح النافذة الصغيرة المطلة على محطة سيارات الأجرة، أجال بصره في الأرجاء؛ كانت هناك سيارات أجرة مركونة، يقف بقربها سائقوها وبعض العاملين بالمحطة، ينادون من حين لآخر، لإحدى الوجهات من المدن القريبة. تطلع قليلا إلى الساحة المقابلة للمحطة، إلى الشارع الخلفي الصغير؛ لا أثر لها.. أحس بخيبة أمل صغيرة بدأت تتعاظم في دواخله، نظر إلى أسفل الفندق حيث المقهى؛ صديقاه ما يزالان في مكانهما، أغلق النافذة، وعاد إلى مكانه، ثم استلقى على ظهره ينظر إلى سقف الغرفة بيأس.

لم يدركم من الوقت ظل في موقفه، حتى سمع وقع أقدام وجلبة قرب باب الغرفة، أسرع إلى دفتره يغلقه، ويضعه بخفة في الدرج الصغير. فتح الباب عن صوت «يوسف» الحاد:

- ماذا..؟ توقظنا في الصباح الباكر.. وتعود خفية للنوم.. !؟؟ عليك اللعنة..

قال وهو يحمل جاكتته:

- سأخرج..

احتج «يوسف»:

- تخرج..؟؟ ألم تلح علينا للاستيقاظ باكرا، ووضع برنامج لاستكشاف المدينة..؟

قال وهو يغلق الباب وراءه:

- ..المدينة التي أحببتها.. أليس كذلك..؟.. لا تقلقا.. لن أتأخر، سأعود حالا ونناقش الأمر.

أغلق الباب، وسار يهبط الدرجات بسرعة حتى وصل إلى باب الفندق، وقف وألقى نظرة طويلة على الشارع والساحة، ثم توجه نحو محطة سيارات الأجرة، تلقته أسئلة السائقين تعرض عليه وجهات مختلفة، اعتذر بإشارات من يده، ثم وقف ينتظر، لكن الانتظار طال به، فتوجه إلى أحد السائقين يسأله بلطف:

- لو سمحت أريد أن أسألك..

- طبعا.. طبعا.. تفضل

- كان هنا بعض السياح قبل حوالي الساعة، ألا تدري شيئا عن وجهتهم..

رفع السائق رأسه مفكرا، لكنه نادى زميلا له يسأله، فجاءه جواب الزميل:

- فندق النجوم..

التقط الاسم وشكره، ثم سار في طريقه، لكنه تذكر أنه لا يعرف مكان

الفندق، عاد إليه سائلا:

- فندق النجوم..

قاطعه السائق بسرعة:

- تصعد الشارع إلى نهايته، ثم تنعطف مع الأدراج الطويلة، إنه هناك قرب مقهى القصبة..

تمتم بعبارات الشكر، ثم سار حيث أشار الرجل.

كان باب الفندق يشرف على شارع صغير، وقف بعد سير أمام الفندق، مفكرا فيما سيفعل؛ قد تخرج في أية لحظة، لذلك يجب أن يستغل الفرصة، وإلا ضاعت منه إلى الأبد، لم يكن قد فكر في الخطوة التي سيقوم بها، ولماذا يقف هذا الموقف، لكنه أحس أن رغبة مجهولة توجهه، ولا يملك نفسه أمامها.

فجأة لمحها قادمة من رأس الشارع، تحمل بعض الأغراض. أسرع إلى الجهة المقابلة قبل أن تراه، انتظر حتى حاذته ماشية في الجهة الأخرى، ثم عاد والتف سائرا وراءها بخفة.

التفت إليها عندما مر قربها، ناظرا إلى الأغراض في يديها:

- مرحبا.. لابد أن هذه الأغراض ثقيلة.. سأساعدك..

نظرت إليه، فندت عنها ابتسامة خفيفة :

- شكرا جزيلا.. هذا لطف منك..

قالتها بلغة عربية في لكنة أجنبية..

قال وهو يحمل عنها بعض الأغراض:

- أرى أنك تجيدين الحديث بلغتنا..

- طبعا.. طبعا.. فقد زرت العديد من الدول، وتعلمت بعض اللغات..

- هذا سيفيدك كثيرا..

وصلا إلى باب الفندق، فشكرته بعبارات مقتضبة، ثم أسرع يقول:

- أنا زائر جديد للمدينة.. ما رأيك أن نخرج في جولة بعد الظهر.. نستكشفها معا..؟

فكرت قليلا، لكنها قالت:

- حسن.. ولم لا.. مو افقة.

أحس بفرح خفي يغمر جو انحه:

- كيف أراك إذن..؟

- انتظرني في محطة سيارات الأجرة..

شكرها بدوره، وسار عائدا إلى فندق «المسافرين».

لم يطق الانتظار في الفندق، خاصة بعد أن أزعجه غمز «يوسف» و «أحمد»، فخرج قبل الموعد جائلا في أرجاء المدينة الصغيرة، كاد يتيه وسط الأزقة الملتوية والمتشابهة، حتى وصل إلى مخرج المدينة الشمالي، حيث يطالعه تمثال حجري لأسد، منصوب وسط حديقة صغيرة، تكثر في جو انبها أشجار الأرز، فكر أنه مكان مناسب للقاء الأول. وقف ثم نظر إلى ساعته؛ اقترب الموعد، عاد إلى مدخل المدينة، فلا يجوز أن يتأخر في أول موعد لهما، ثم سار مع الشارع الوحيد المنحدر، الذي يخترق وسط المدينة، عائدا إلى المحطة.

كانت محطة سيارات الأجرة خالية، إلا من بضعة سائقين، يقفون في مجموعات متضاحكين، كان أغلب حديثهم حول الأكل و افتقار السوق لبعض الخضر والمواد الأساسية.

سمع فجأة صوتا أنثويا خلفه:

- مرحبا..

التفت فوجدها ماثلة أمامه، بابتسامتها الواسعة غير المتكلفة، وعيناها الزرقاوان تومضان ببريق مميز..

- مرحبا.. كيف حالك..؟

- بخير، أعتقد أنني تأخرت قليلا..

- لا عليك.. فأنا وقفت هنا قبل الموعد بفترة، كنت أجول خارج المدينة، هناك أماكن رائعة..

تطلعت إليه بحماس:

- حقا..؟

- ما رأيك أن نتجول هناك قليلا..

- حسنا.. كما تشاء

سارا نحو الجزء الشمالي للمدينة. لم ينس خلال مسيرهما أن يسألها عن اسمها، «جاين»؛ كان لهذا الاسم وقع غريب على سمعه، علق عليه بعبارات ترحيب سريعة، بعد أن أخبرها أيضا باسمه..

خرجا من مدخل المدينة، وطالعتهما الحديقة الواسعة، حيث يظهر الجبل أمامها ماثلا بشموخ. وقفا أمامه يتأملانه بإعجاب..

قالت بعفوية:

- يا لشموخ هذا الجبل وروعته.. انظر إلى الخضرة التي تحف أرجاءه، وكأنه خارج لتوه من إحدى لوحات «فان غوخ»..

أجاب وكأنه يكمل حديثها:

- ..أو من قصيدة ل«ميخائيل نعيمة»..

قالت بحماس:

- ما رأيك أن نصعده..؟

قال مترددا:

- .. لكن، أرى أن نذهب أولا إلى..

قاطعته بخبث:

- ماذا.. إذا لم تستطع .. سأصعد وحدي..

ابتسم سائرا أمامها:

- هيا بنا..

تأمل حركاتها أثناء صعودهما؛ كانت تتفادى الأحجار وبعض الأشواك بخفة ورشاقة، وتقف من حين لآخر ملتفتة إلى المدينة؛ ترمقها بنظرتها الفاحصة قليلا، ثم تواصل سيرها كفراشة..

وصلا أخيرا إلى القمة، حيث تستقر فيها القلعة القديمة، والتي انهار جزء من سورها، ورغم ذلك ماتزال محافظة على هيبتها.

وضعت حقيبتها الصغيرة على الأرض، ووقفت تتأمل القلعة بإعجاب.

ثم التفتت إليه:

- من بنى هذه القلعة..؟

فوجئ بالسؤال:

- ...إنها.. إنها قديمة.. في الحقيقة لا أدري..

ابتسمت، ثم فتحت حقيبتها الصغيرة، وأخرجت دليلا سياحيا حول المدينة، بحثت بين صفحاته، ثم بدأت تقرأ بصوت عال:

- «بنيت القلعة أو «القصر» كما يسميها أهل المدينة، في القرن السادس عشر، للمراقبة وتحصين المدينة، بعد أن كثرت الغارات عليها.. وقد أصبحت اليوم أهم أثر فيها..»

أغلقت الكتاب بسرعة، وسارت أمامه قائلة:

- حسنا.. هيا نستكشفها إذن..

التفا حولها في الجانب المهدم منها، وسارا بحذر بين الركام والأحجار، حتى وصلا إلى بابها الذي يبدو أنه أغلق منذ زمن. استخرجت آلة تصوير من حقيبتها، وصورت كل أطراف القلعة. ثم جلسا على تلة قريبة في مقابل المدينة، ظلا صامتين للحظات؛ كانت عيناه ترقبان المدينة، لكن فكره غائب؛ يفكر في هذا الكيان الجالس قربه، والتغير المفاجئ الذي اجتاحه فجأة بسببه، وتساءل: هل تدرك شيئا مما يدور في خلدي..؟ لكن خاطرا آخر دهمه: قد لا تدركه، لكن يبدو أن القرب منك يسعدها؛ ألا ترى حركاتها وضحكاتها.. إنها سعيدة حقا..

امتلأت جوانحه سرورا وهو يتابع أفكاره تلك، ثم التفت إليها بهدوء، متحركا في مكانه؛ كان يهم بقول شيء ما.. في نفس اللحظة رن هاتفها، رفعته إلى أذنها:

- ..مرحبا.. أنا أتجول في بعض أطراف المدينة... اااه... حسنا.. حسنا.. أنا قادمة..

نهضت بخفة وهي تودعه:

- ..استمتع بوقتك ..سأذهب.. الأصدقاء ينتظرونني الآن.. نلتقي لاحقا..

قام وقد فاجأه الموقف:

- متى..؟

قالت دون أن تلتفت:

- لا تقلق.. لدينا كل الوقت.. والمدينة صغيرة.. اخرج فقط وسنلتقي. ثم سارت نازلة التل.

خرجا معا في عدة جولات بعد ذلك.. ما جعله يجبر صديقيه على تمديد إقامتهم في المدينة. كانا يلتقيان في مقهى الفندق في الصباح الباكر، ثم يتجولان بين أزقة المدينة الضيقة أو يصعدان إلى أعلى الجبل، حيث القلعة القديمة المشرفة على المدينة كلها، يجلسان معا، يستمتعان بمنظر المباني الصغيرة الملونة، أو يتجولان في الحديقة الصغيرة بين الأشجار. أمسك ذات مرة يدها الصغيرة بين يديه، ورمقها بنظرات طويلة عاشقة، ثم بدا أنها تكن له مثلها..

رشف من الكوب آخر رشفة، ثم نظر إلى ساعته مجددا؛ كانت تشير إلى التاسعة، بدا عليه القلق وهو يلتفت يمينا ويسارا، وأصحاب الدكاكين المتأخرون، بدأوا يفتحون أبوابها في كسل.

فكر في الاتصال بها، لكنه فضل إرسال رسالة عبر هاتفه:

«صباح الخير.. أمازلت نائمة..؟ أنا أنتظرك في المقهى كالعادة..»

طلب كوب قهوة آخر، رشف منه بضع رشفات، لكنه لم يطق الجلوس أكثر. نهض تاركا المقهى في قلق، قاصدا فندق «النجوم». لا يمكن أن تظل نائمة حتى هذا الوقت، كثيرا ما توقظني في ساعات الصباح الأولى، ولو كانت مستيقظة، فلاشك أنها ستخرج للقائي.. لابد أنها مريضة إذن.

سار صاعدا الشارع الصغير المنحدر، ثم انعطف في زقاق ضيق، يؤدي إلى أدراج طويلة متسعة. صعد الأدراج، ثم رن هاتفه رنينا خافتا، كانت قد أرسلت إليه رسالة نصية قصيرة:

«مرحبا.. كيف حالك.. أعتذر منك، لابد أنك انتظرت طويلا، لقد قضينا وقتا رائعا معا، لكنني عائدة إلى أروبا الآن، أعلم أنك عقدت آمالا كبيرة على علاقتنا، أنا خجلة من إخبارك أن كل ذلك كان مجرد خدعة، كنت

أجري بحثا حول نظرة الرجال في بلدكم إلى الأوروبيات.. سامحني فلو أخبرتك منذ البداية بالحقيقة، لما توصلت إلى نتائج مشجعة.. حظا طيبا..»

• • •

متاهات الحجرة المغلقة

دخل الأب مع ولده متجهما الحجرة المغلقة الخاصة بالطبيب، كان قد انتهى لتوه من حوار طويل مع بعض المنتظرين في قاعة العيادة. استغرقه الحوار واستهواه حديث محركات السيارات وسرعتها ومكوناتها.. واستهتار الجيل الحالي بالقيم، ونفوره من الدراسة والتحصيل.. والسياسة الجديدة للولايات المتحدة في محاربة التطرف.. حتى نادته السكرتيرة في لطف باسمه.

قصد باب الحجرة المغلقة مع ولده في قلق، وقد تذكر غرضه من المجيء. كان الطبيب يجلس في مكتبه ينظر إليهما عبر نظاراته الطبية، ويسجل شيئا في ورقة أمامه، ثم ابتسم لهما طالبا منهما الجلوس:

- مرحبا بكما.. تفضلا بالجلوس..

- شكرا لك يا دكتور.. سمعت الكثير عن مسؤوليتك ونزاهتك.. هذا شجعني على المجيء إليك، بعدما ألم بابني ما ألم به.

ابتسم الطبيب في زهو:

- نحن نقوم بواجبنا.. مشكلتنا أننا لم نعد نقوم بواجبنا كما ينبغي..

وسع حدقتي عينيه أكثر من اللازم وهو يشير بيده في الهواء قائلا:

- طبعا.. طبعا.. كنت أقول هذا دائما، لقد أصبت.. قولك سديد.. ولا أستغرب ذلك، فأنت أفضل طبيب عرفته في البلاد، بل ربما في العالم كله..

عدل الطبيب من جلسته وهو يلقي برأسه قليلا إلى الوراء منصتا إليه

في ارتياح، وكأنه أعطى بذلك إشارة للأب الذي استرسل:

- حدثني صديق عنك.. حكى لي حادثة وقعت لجار أخ زوجته.. قال إنه حضر إليك ذات يوم يشكو حمى أنهكته منذ أيام، لا يستطيع النهوض إلا بالمسكنات.. وعندما خرج من عيادتك شفي تماما، كأن لم يمسسه مرض، وقد أخبرني صديقي أن بوادر الشفاء ظهرت عليه عندما نظر إلى وجهك..

كان الابن يجلس في مقابل أبيه، نظر إليه مليا ثم إلى الطبيب الذي يبتسم في بلاهة، هم بأن يقول شيئا، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة..

تساءل الطبيب:

- هل تتذكر اسم هذا الرجل..؟

- إنه «الحاج إبراهيم» الموظف في وزارة النقل.. هل تتذكره..؟

تصنع الطبيب التذكر مفكرا:

- الحاج إبراهيم..؟ آآه.. نعم.. أعرفه طبعا..

تردد الأب قائلا:

- سمعت كذلك يا دكتور.. أنك لم تأخذ أجرا منه..

فوجئ الطبيب لكنه قال بثقة:

- نعم.. نعم.. لقد اعتدت ذلك أحيانا، خصوصا مع المرضى الفقراء، فنحن لم نختر هذه المهنة لنتقاضى عنها أجرا أو نغتني بها، ونبني القصور والفيلات..

قال الأب في إعجاب:

- أعلم ذلك يا دكتور.. نحن فخورون بك فعلا..

مال إليه الطبيب في اهتمام، وكأنه تذكر شيئا هاما:

- سمعت أن «الحاج إبراهيم» هذا ينوي الترشح للوزارة..؟

أجاب الأب بنفس الاهتمام:

- أجل، لقد رشحه مسؤولو الحزب لما رأوه من تفانيه ونزاهته في العمل.. لا أخفيك أن شعبيته بين الناس تزداد يوما بعد يوم..

- حقا.. !؟

- طبعا.. طبعا.. إنه يخصص للفقراء نصف أجرته، رغم أنها بالكاد تكفيه وأسرته..

ثم أردف بصوت خافت:

- ..وقد أسر إلي صديقي أنه يتحدث أحيانا عن ضرورة توزيع ثروات البلاد بعدل بين الكل، و أنه سيعمل عندما يصبح وزيرا على ذلك وحث المسؤولين عليه.. وإلا..

- وإلا ماذا..؟؟

أجاب بحزم مصطنع لا يتناسب مع موقفه:

- وإلا فإنه سيستقيل بشرف.. ف»الحاج إبراهيم» صاحب مبادئ، ولا يقبل أن يكذب على الناس.

أجاب الطبيب مؤكدا:

- طبعا.. فما أحوجنا إلى أمثاله.. إنه فعلا مثال للنزاهة والشرف..

- أنا شخصيا سأدعمه بكل ما أوتيت يا دكتور.. فأنا أحب الشرفاء أمثاله..

حانت من الابن الجالس في صمت، التفاتة إلى الساعة المزخرفة، المعلقة على حائط وراء مكتب الطبيب، فلحظ أن ربع ساعة مرت منذ دخولهما الحجرة..

نظر إليه الطبيب، وكأنه يراه للمرة الأولى:

- كيف حالك يا بطل..؟

ابتسم له الابن بأدب حانيا رأسه، متمتما في نبرة هادئة:

- بخير..

تساءل الطبيب في بلاهة:

- ما بك يا ولد..؟؟ أراك شاحبا..

لم يجبه الابن، لكن الأب عاد إليه بعض تجهمه وهو يقول:

- كما ترى يا دكتور.. فهو يبدو هكذا دائما.. ورغم ذلك، فهو ذكي ومتفوق في دراسته، فهو اسم على مسمى كما يقال.. اسمه «نجيب» بالمناسبة يا دكتور..

قال الطبيب بفتور:

- ومم يشكو إذن..؟

- لا أدري يا دكتور، إنه يبلغ التاسعة من العمر، ورغم ذلك- وكما رأيت- فهو لا يتحدث كثيرا، وإذا تحدث؛ يتكلم بعبارات قليلة مقتضبة، حتى شككت أنه يعاني خللا في النطق، ولذلك نصحني بعض أصدقائي بزيارتك، لما عرف عنك من كفاءتك وأهليتك...

• • •

الهاتفون

كان مارا بالقرب من الشارع الرئيسي، تناهت إلى سمعه أصوات عالية ترتفع أحيانا وتخبو أحيانا أخرى. أصاخ السمع من جديد.. كانت هتافات تطلقها حناجر غاضبة بحدة. توقف ثم استدار جهة الأصوات، ودلف إلى إحدى الأزقة القريبة المؤدية إلى الشارع، تسارعت خطواته حتى وقف أمام جمع غفير من الناس ينحدرون إلى الشارع بانتظام، وقف في نهاية الزقاق يراقبهم.. يسيرون بصفوف متراصة ويرددون شعارات موحدة يغيرونها من حين لآخر، يمد بصره على امتداد الشارع.. كان غاصا بالخلق، يتقدمون بثبات ككتيبة في الجيش، سار بجنبهم يتأمل سحناتهم الجدية حتى وصل إلى المقدمة، كان أحدهم يسير على الجانبين يحثهم على التقدم بالهتاف والتصفيق، ويوقفهم من حين لآخر ليتلو شعارا جديدا ترتده الحناجر من ورائه، كان سمينا قصير القامة، وقد لفحت أشعة الشمس وجهه.

لحظ أن جماعة من الرجال يرتدون لباسا ثقيلا واقيا من الرصاص، يضعون خوذات واقية على رؤوسهم ويحملون عصيا قصيرة، قد أحاطوا بالهاتفين على جانبي المقدمة، تحمس للمشهد، وظل يرقب ما سيحدث، وتمنى في دخيلة نفسه أن يتقدم الهاتفون أكثر ويخترقوا صفوف هؤلاء، فقد كانوا قلة، أعجبه إصرارهم على التقدم ونظامهم في التراص وترديد الشعارات.

فجأة رأى ضابطا يأمر رجاله بالالتفاف ويمنع الهاتفين من التقدم.

غير أنهم تقدموا بسرعة دون انتظام حتى تزاحموا في المقدمة و اقفين في تحد. توقف الجمع فجأة عن الهتاف، ثم أخذ الرجل السمين مكبر صوت وتكلم كلاما كثيرا وهو يشير بكلتا يديه في الهواء و أنفاسه تكاد تتقطع. دب الحماس من جديد في الجموع الهاتفة، ثم سارت تتقدم بثبات نحو الرجال ذوي الخوذات، فحاولت اختراق صفوفهم المنيعة.. جاء أمر الضابط مجددا، فرفعوا هراواتهم في الهواء، ليتراجع الهاتفون في هلع ويسقط بعضهم وتختل صفوفهم، فيما علا الصفير والهتاف الغاضب في المؤخرة. خرج السمين وصاح بهم مجددا للتقدم، أطاعه بعضهم في تردد وحذر والتأموا في صفين كبيرين، يتبعهما الجمع الغاضب مبتعدا عنهما بمسافة لابأس بها. اشتبك الجمعان أخيرا، لاحت الهراوات مجددا، انقبضت الوجوه وتصلبت الأقدام، البعض يسقط أرضا ثم ينهض مجددا محاولا اختراق الأجساد الضخمة المثقلة بالدروع والواقيات، البعض الآخر يفر إلى أحد جانبي الصفين، ثم يكر مجددا في حماس، على مقربة منهم ينسل بعضهم بهدوء وعلى وجوههم دلائل الاستسلام، يصمد آخرون، ثم تنهال عليهم الهراوات تفرقهم فيتراجعون خائبين..

كان يراقب المشهد عن كثب، تصاعدت الدماء إلى وجنتيه، وملأ الغضب جوانبه، اندفع دون تفكير نحو الجموع المشتتة الحائرة، وقف يدير رأسه يمينا وشمالا وهو يبحث عن الرجل السمين.. أين ذهب يا ترى؟ يجب أن يكون هنا الآن.. لابد أن يعيد للهاتفين انتظامهم.. توجه إلى أحدهم بالسؤال: أين الرجل السمين؟ أين قائدكم؟ .. كان الآخر ينظر إليه ببلاهة كأنه صخرة ملقاة في عمق المحيط.. أشاح بوجهه عنه،

وبدأ صراخه يرتفع بينهم..: «تقدموا.. تقدموا..» كان صوته أضعف من أن يسمعه الهاتفون.. ثم في لحظة، وجد نفسه يصرخ بقوة أكبر: « لماذا تتراجعون..؟ .. يجب أن تتقدموا.. أنتم الأقوى.. أنتم الأقوى..» .. وجد صراخه صدى لدى بعضهم، فبدأوا يتأملونه بأعين حائرة.. ظل يصرخ بأعلى صوته، لكنه كان محاطا بوجوه خائفة ذاهلة ترمقه بحذر. استولى عليه الغضب أخيرا، فانطلق مخترقا الصفوف الخامدة حتى وصل موقف ذوي الخوذات، التفت إلى الهاتفين يصيح فيهم حاثا إياهم على التقدم، لكنهم كانوا يرمقونه بنظرات زائغة مستسلمة، داخله اليأس للحظة قبل أن يعود إليه حماسه وهو يتقدم، أحس لحظتها أنه وحيد في الساحة يواجه هؤلاء بكامل قوتهم وعتادهم، تملكته النشوة والفخر لذاك الإحساس، وكأنه جندي في ساحة المعركة، سينقذ كتيبته من هزيمة آتية. توقف أمام الخوذات الضخمة المصطفة على امتداد بصره، ثم رفع صوته بالهتاف ضدهم.. استعمل في ذلك كل تلك الشعارات التي كان يحفظها، وحاول تذكر أخرى غابت عن ذاكرته، وفي حمأة حماسه تخلى عن بلاغة الشعارات وتنميق كلماتها، فاستعمل كل معجمه في السب والشتم.. ثم بدأ يندفع بجسده بينهم في غضب يطوح بكلتا يديه يمينا وشمالا، ثم بدأ يحس بالضربات تنهال عليه من كل جانب، غلا الدم في جسمه وقاوم الألم الذي بدأ يجتاحه ويعيقه عن التقدم، وصمد لضربات الهراوات والأقدام الضخمة وهو يتقدم في ثبات، لكنه أحس فجأة بضعف يجتاح جسده من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، قرر المقاومة.. فتح حدقتي عينيه على اتساعهما وحاول الصراخ: ملجأه الأخير.. لكنه ارتفع فجأة في الهواء بعد أن أحس كأن

صخرة ألقيت على رقبته.. ثم سقط على الأرض بين الأحذية الثقيلة. فتح عينيه فوجد نفسه جالسا على كرسي في غرفة بها مكتب، يجلس خلفه رجل تظهر على ملامحه علامات السخرية، أجال عينيه في أرجاء الغرفة ثم انتبه إلى موقفه فقد كان يجلس في قسم الشرطة والرجل الجالس أمامه أحد الضباط الذين يستجوبونه، بدأ التحقيق دون مقدمات، كان يجيب بهدوء و إيجاز، وحينما لم يفلح الضابط في الظفر منه بشيء ذي بال، أمر خفيرا باصطحابه إلى سجن القسم. أوقفه الخفير ثم سار به نحو الباب، ثم انفتح فجأة وظهر الرجل السمين الذي كان يقود الهاتفين، وهو يحمل كوب قهوة، فاغرا فاه عن أسنان ناصعة، نظر إليه في برود، ثم تقدم إلى الضابط متهللا، رآه الضابط فابتسم له في تكلف، ثم أشار إليه بالجلوس. كان ما يزال و اقفا يتابع المشهد في هدوء ويد الخفير تجره عبثا نحو الباب..

• • •

عين الغراب

كان الرجل جالسا في مؤخرة قاربه المتهالك، يرفع رأسه ناظرا إلى الجبال الواسعة المحيطة بالنهر، وإلى صفحة الشمس الحارة التي اخترقت كبد السماء في ذاك اليوم القائظ. كانت حركة القارب الروتينية وصوت ارتطام المجداف بالمياه خلقت طقسا جديدا أصبح جزءا من الطبيعة المحيطة به. يحمل قنينة ماء ويعب منها في نشوة، ثم ينقل بصره إلى الخيمة المنصوبة أمام الضفة قرب شجيرات ظليلة.. يتأمل محيطها.. لا حركة، يبدو أنهم لم يستفيقوا بعد، كانت قطع الحطب المحترق مازالت ملقاة قريبا من الشجرة..

تنط سمكة بالقرب منه فجأة، ثم تختفي مخلفة رذاذا من الماء المتساقط على حاجز القارب، لم يعر حركتها أدنى اهتمام، بل ركز كل بصره على مقدمة القارب والضفة التي اقترب منها.

قفز على اليابسة ثم شد حبل القارب وأوقفه، وسار بحذائه الضخم حتى حاذى الخيمة ووقف يتأملها قليلا، ثم سار صاعدا التلة القريبة واضعا كلتا يديه وراء ظهره.

كان الصديقان ينحدران من أعلى الجبل عندما لمحاه..

- «انظر»

نظر حيث يشير صديقه:

-» ماذا؟»

- «إنه يحوم يحوم حول الخيمة.. يبدو أنه لص..»

حرك رأسه في سخرية:

«يالك من أحمق»

«أحمق؟»

«لا، لست كذلك.. أنت فقط ترى شخصا بهيئة الصيادين نزل لتوه من قارب، وتقول عنه لص.. حقا إنك لست أحمقا..»

«كفاك سخرية.. لماذا رسا إذن قرب المكان الذي نضع فيه خيمتنا..؟»

ركل حجرا مدورا بقدمه، متجاهلا ملاحظته الأخيرة..

«أتعتقد أنه رآنا الآن ؟»

«طبعا..»

«..لذلك اختار طريقا أخرى يتفادانا فيها»

كان الرجل قد استدار حول التلة وصعد على يسارهم بعيدا عنهم.. فيما كانت الشمس قد اقتربت من منتصف السماء، عندما عادا من رحلتهما الصباحية إلى الغابة. فتح سليمان الخيمة وأخرج معدات الطبخ والأغراض، استعداد لإعداد طعام الغذاء ووضعها بهدوء قرب الشجرة، ثم نزل باتجاه الوادي ليملأ القنينة بالماء، في حين سار عمر في الاتجاه المقابل حتى وصل التلة المطلة على الوادي واستدار حولها يمشي في الطريق الموصلة إلى مقدمة الغابة، ليجمع كمية من الحطب، حيث ينتشر هناك بكثرة..

بعد دقائق.. كان قد ملأ قنينته وبدأ بالعمل، بدأ بتقشير قطع البصل عندما تذكر كيس الخضر الذي وضعته المرأة قربه في سيارة الأجرة، كانت صامتة طوال الطريق، شأنها شأن باقي الركاب، وكل من صادفهم في تلك المنطقة، كانت تنظر إلى الطريق حين خاطبهما السائق المتجهم:

«قلتما إنكما تقصدان «عين الغراب»..؟»

«أجل..»

«ستنزلان في منطقة قريبة.. تنحدران عندها إلى ذاك المكان عبر الغابة.. فليست هناك طريق معبدة قريبة منه..»

«حسنا»

نظرا إلى بعضهما البعض، وفي لحظة كان كل منهما يفكر في تلك الطريق التي سيقطعانها إلى «عين الغراب». وكانت المرأة قد بدأت ترمقهما بنظرات غريبة، وكذلك فعل الرجل البدوي الجالس قربها، الذي أشاح عنهما ببصره في حذر، عندما لاحظا اهتمامه.

كانت الشمس الحارقة تلهب جسديهما عندما نزلا من سيارة الأجرة..

قال عمر:

«ألم تلحظ كيف كانا ينظران إلينا؟ حتى الفتاة الجالسة قرب السائق كانت تلتفت إلينا.»

«لابد أنهم يظنون أننا نحمل الديناميت في حقائبنا الضخمة هاته، وسنفجر بها ذاك المكان.. هاها.»

كان قد اقترب منه كلب وهو يضع اللمسات الأخيرة على أكلته، نظر إلى عينيه الغائرتين وإلى جسده.. كان أشهب تبدو عليه علائم القوة..

ألقى إليه ببعض قطع الخبز الجاف، وبدأ يلتهمها على مقربة منه بهدوء وتأن.. كان ينظر إليه في ود وقد انتهى لتوه من تنظيف الأواني وتنظيف المكان حوله.. أسند رأسه إلى الشجرة، ونظر إلى الساعة في هاتفه النقال.. مرت نصف ساعة على غياب عمر أين يمكن يكون قد ذهب؟ كان يجب أن يكون هنا قبل أن أنتهي من عملي، وسيأتي بعد قليل متحججا بآلاف

الأعذار. كان الكلب قد انتهى من أكله وسار مبتعدا عنه، يلتفت إليه من حين إلى آخر كأنه يشكره. فجأة حام حوله غراب على مسافة قريبة وهو ينعق، ثم حط على صخرة قريبة..

مرت ربع ساعة أخرى.. نهض من مكانه مقررا البحث عنه، جمع الأغراض المهمة ووضعها داخل الخيمة، ثم سار باتجاه التلة مستديرا حولها، قاصدا طريق الغابة. كانت قدماه تتحاشيان بعض الحشائش والأشواك، حتى وصل طريقا ضيقة معبدة، تحفها على الجو انب نباتات شوكية وأشجار تمتد حتى بداية الغابة. ندم حيث لم يحمل سكينه الصغيرة التي اعتاد أن يقطع بها مثل هذه الأشواك والأغصان الملتوية.. نظر إلى أرض الغابة: كانت مليئة بالأغصان والحطب الجاف. لماذا لم يجمع الحطب من هذا المكان ويعود بسرعة؟ لابد أنه توغل في الجهة الأخرى، وربما ضل طريقه في تلك الناحية من هذه الغابة الموحشة. إنها موحشة حقا. رفع بصره على امتداد الأشجار السامقة المتزاحمة.. كانت الأغصان تحمل أعشاشا عديدة متقاربة، طاف ببصره على الأعشاش فظهرت له غربان يطوف بعضها حول المكان، ويقف بعضها الآخر على الأغصان. كان منظرها وهي مجتمعة والسواد الذي يجللها قد أدخل الرهبة إلى نفسه. حاول طرد الخوف الذي بدأ يتعاظم في نفسه، وسار غير آبه بها ولا بالأشواك التي تعترض طريقه. فجأة طار غراب قربه بسرعة. توقف ونظر تجاهه: كان قد اختفى بين أغصان شجرة قريبة.

«غراب لعين..»

صاح بشدة و أتبع العبارة بشتائم حملها كل غضبه وخوفه، و أثناء ذلك طارت مجموعة من الغربان حوله.. حمى وجهه ورأسه بيديه، لكنها لم

تبتعد، طوح بيديه في كل الاتجاهات علها تبتعد، لكنها ازدادت التصاقا به.. عاد إلى الوراء بخطوات متعثرة، ثم ركض عائدا إلى الطريق التي جاء منها.. تعثر عدة مرات لكنه لم يسقط ولم يلتفت، كان نعيق الغربان يصك أذنيه وقطرات العرق يحسها باردة على أطراف من جسده. أخيرا خرج إلى الطريق قرب التلة، وبدأ يركض بقوة حتى انحدر نحو الخيمة لاهثا، ركع قرب الشجرة يستريح قليلا ثم حانت منه فجأة التفاتة نحو الخيمة، بل.. بقايا الخيمة، فقد هدمت وكان جزء كبير منها محترقا، فيما تناثرت الأواني وباقي الأغراض على الأرض.. حام حول المكان يتفحص جوانبه ويبحث بين الأغراض.. يبدو أن النار قد أطفئت للتو.

دار حول نفسه وتفحص المكان بحذر، ثم أرسل بصره جهة الوادي.. بدا له شيء ما ملقى جنب الأحجار على الضفة القريبة. سار نحوه ببطء، اقترب شيئا فشيئا حتى وقف على الضفة.. كان عمر ملقى على بطنه غارقا في دمائه، ووجهه يلفحه رذاذ الماء المتطاير من ماء الوادي..

• • •

الغرفة المظلمة

يجلس وحيدا في الغرفة المظلمة مفترشا أرضها، أمامه طاولة خشبية صغيرة ومهترئة، إلى الأمام قليلا يركن سرير قديم لا غطاء عليه، النافذة الصغيرة المقابلة للسرير يلج منها بعض الضوء، ينتشر ما استطاع في أرجاء الغرفة، على يساره يستقر باب حديدي بفتحة صغيرة في أعلاه، يتراءى منها في الخارج ممر طويل، ثم باب آخر ذو قفل حديدي متين. ينهض فجأة ويتجه نحو النافذة، يحشر أصابع يده اليمنى مداعبا شعره الأشعث، ويرسل نظره بعيدا نحو نقطة في السماء، عيناه المتعبتان لا تحيدان عن تلك النقطة للحظات. يسحبهما فجأة بعصبية ويثبت كلتا يديه على عمودين حديدين يخترقان النافذة، يقرب رأسه في عنف ويصدمه مع النافذة في حركات متتابعة، تختلط الدماء في وجهه مع دمعة تسللت من عينه اليسرى، يمسح وجهه بكم معطفه القديم في يأس ويرفع رأسه نحو السقف متمتما بشيء ما. يتجه نحو الباب، يطل من فتحته: الممر طويل وخال. يعود إلى مكانه أمام الطاولة ويجلس حانيا رأسه. الضوء بدأ يختفي من الغرفة تدريجيا، بعد لحظات يبدأ الظلام في احتواء المكان، يقترب من الجدار متكئا برأسه والدماء لاتزال تسيل من جبينه. في غمرة الهدوء والظلام يحس بريح خفيفة تلفح رقبته المسندة إلى الجدار، لم يعرها أدنى اهتمام، لكنها بدأت توخزه ببطء وبشكل مستفز. التفت وراءه مذعورا، لا يسعفه الظلام في رؤية مصدر الريح، يضع ظاهر يده على الجدار وينتظر للحظات، لقد بدأ

يحس فعلا ببرودة خفيفة في يده وبتوقف شعيراتها القليلة، مسح على ذاك الجانب من الجدار وحاول نزع بعض من أجزائه، فقد كان بناء الغرفة قديما وهشا، بدأت الأتربة تتساقط من تلك النقطة في الجدار، بعد أن استعمل بعض الأحجار الصغيرة التي كان يحتفظ بها. وقف بعد فترة ليست بالقصيرة، ووضع يده مجددا في تلك النقطة، شعر بكمية لا بأس بها من الهواء تخترق يده، تراجع قليلا إلى الوراء وبدا كأن فكرة ما ومضت في ذهنه.

تبدو الفتاة سعيدة وهي تتأمل اللوحات المثبتة على طول الممر، تتقدم بهدوء لتقف فجأة أمام إحدى اللوحات، تنظر إليها مليا لتعبر لصديقتها عن استغرابها مما تعبر عنه اللوحة: كانت هناك زنزانة مظلمة وخالية، يتسلل من فتحة في إحدى جدرانها الداخلية بعض الضوء.

• • •

لقاء خاص

رأيتها من بعيد تمشي بخطوات طويلة ورشيقة، أعجبني منظرها، قررت أن أتبعها، وسعت من خطواتي قليلا وسرت وراءها، إنها على بعد أمتار قليلة مني، تقف فجأة.. تدور حول نفسها دورة واحدة.. تنظر إلى شيء ما في الواجهة المقابلة، تستمر في سيرها، كانت بيضاء بغير إفراط، لا شك أنها ناعمة الملمس، صرت الآن أكثر قربا منها، خطواتي أصبحت أكثر سرعة، ها هي تقترب.. بل أنا من يقترب، عيناي مثبتتان عليها. فجأة اصطدمت به بشدة، أوقعت أكياس الفاكهة وعلبة الحلوى التي يحملها، كان غاضبا، التفاحات التي تتدحرج على الرصيف تبدو لي أكثر احمرارا، نظرت إليه بتحد، رفع يده اليمنى تجاهي، ركضت مبتعدا عنه، ارتفعت فجأة في الهواء وسقطت على الأرض، كانت قشرة موز لعينة قد نصبت شراكها لي، رفعت رأسي، أمام عيني مباشرة تستقر بعض الأرقام، هي لوحة أرقام سيارة فرمل صاحبها بقوة، وجدت نفسي وسط الشارع أعرقل حركة المرور، يجتمع الناس حولي شيئا فشيئا، الشرطي يندفع راكضا نحوي، نهضت بهدوء وانسللت بين جموع الفضوليين مهرولا، بعد لحظات من السير، أقف في رأس الشارع متعبا، مسحت وجهي بمنديلي، أسمع صوتا ما، أنظر تجاه الصوت،

كانت و اقفة أمامي كأنها تنتظرني، تقدمت إليها ووضعت يدي عليها. كان صوتها مازال يخترق أذني و أنا سائر في الشارع: مْيَااوْ.. مْيَااوْ، بل الأكثر من ذلك: كان ملمسها ناعما كما توقعت.

• • •

تم بحمد الله

فهرس

مرآة كاذبة ٤
الكرسي الأسود ١٠
جيكو ١٤
زيارة في منتصف الليل ١٨
سوء فهم ٢٣
مراقبة ٢٨
انتظار ٣٣
السور ٣٧
يوم في الميناء ٤٢
اختلاف ٤٧
متاهات الحجرة المغلقة ٥٩
الهاتفون ٦٤
عين الغراب ٦٩
الغرفة المظلمة ٧٥
لقاء خاص ٧٨

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو ٢٠١٧

www.lotusfreepub.com

إصدارات المشروع

قلم عطر
وعادت ريما
مثل ليلة حب
وكأني أحبك
عالم قراطيس قراطيس
أوتار
دماء على ثوب أبيض
أموات فوق الأرض
بقلم رصاص
حريق على الجسر
القدرات السحرية
العالم لن ينتظرك
عندما ينتحب الياسمين
مرايا
البوهيمي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
خريف مريم
حلم صريع
مُتيم
يوميات رجل محسود
هدوء ما قبل الانفجار
الموؤودة
أنين المساجد
صوت السماء
طبق كشري
أحببتك بعين قلبي
ما لا تعرفه عن الهجرة
الأيام الأخيرة
موانئ الرغبة
١٠٣
زمن الحنين
أوراق على دفتر الحنين
أحببتُ شبحاً
حكايات من التاريخ
كلمات ربي (ج١)
وشم على كتف الحياة
كيتو ياكيفو
يتيمة بأبوين
مائة عام على كوكب الأرض
نبوءة عاشق
رصيف نمرة ٢
قمر الدم
حنين الحنين
نساء وقيود
الآهات المكبوتة
عن الذي استدان ليشتري
الشقاء

كتبتُ أحبك
فلاكا
الآدم وهي
أحلام فجر
مفاهيم إدارية لثالث ألفية
عاشق الضي
أنامل قصصية
مملكة روح
ماهر وسماهر وبئر النسيان
الضال
خليج بلا وافدين
في ليلة شتا
الشيطانة وعصا الجحيم
أنين وردة
لا تتعجلي الرحيل
بدون
من الأكاديمية إلى الفيلا
بردية رع (ذهاب وعودة)
كاتب ونساء وعبث
جيهينا
مذكرات خادمة من مونار
بعيداً عن العالم
قمر الدم (العودة)
سئمت الغربة
هكذا ضعنا
حلم
شيء من قلبي
قطوف وحروف
عائدة من الموت
شياطين السموم
حوار في الأفكار
وأد الزهور
أغاني البادية
الفراشة البيضاء
مدينة حرف
عذرية ما قبل الواحدة صباحا
حواديت مدينة الرحاب
الضحية
غيمات حبر وحب
كهف الجحيم
الحبيب المستحيل
تنمية التفكير الابتكاري للطفل
المنهج الإصلاحي
نفيش
ورد وشظايا
ولوج
الفن مين يعرفه

كريتوس
عهد
نبض حرف لا يخون
عبد اللاه
ساكني الكهوف
أخبرت البحر عنك
أحرفي تتراقص
لا تحزني
حلم عاشق
إحساس درويش
أقلام حائرة
خشوع بمحراب الحب
قمر الدم (رحيل الآلهة)
أرض الفيروز
عبرات ضاحكة
أنا يحيى
نظم المعلومات المحاسبية
حكاياتي المحروسة
حروف من قلبي
على الأعراف
زواج افتراضي
رجماً بالغيب
المانتا
خواطر مع الريح
شمعة وقلم أحمر
أسلوب العدول في القرآن الكريم
الفستان الأزرق
سيجار ولص ومأذنة
الحب المفقود
القيامة الوردية
كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
لماذا رحلت؟
جدال
التقارير المالية
موسم التوت
عبث
سلسلة المحاسب المتميز - ج١
هل ستغفر لي
سفاح المدينة
ناروبري
حبيبة أمها
التيسير في علم التأسيس
همسات ونسمات
الملاك الأسود
ملكوت السلطانة
أنات عاشق
ساعة من الزمن

زمان غادرنا
رقة النسائم
سبعة أحلام
في انتظار المد
نداء القلوب
درب الحكايات
ضجيج البحر
من تربة الورد خلقت
شهوات العقل
قطرات منثورة
أكروفوبيا
خدر مسلوب
دروب ملتوية
سوط الذكريات
الأخيذة
المأدبة
سيناء أرض العبور
الذكاءات المتعددة
دكتاتورية الحب
الفراشات لا تسكن القبور
تذكرة سفر
وخشعت قلوبهم
وطن الجومانجي
نموذج بايبي البنائي
المدينة الهادئة
السفينة
رشفة عشق
المسكالين
حرف تايه
حروف نابضة
الراقدون فوق التراب
أيقونة حروف عربية
ولاد الشيخ
فضفضة
كالبحر يتنفس موجا
بائعة اللبن
مركب شراع
غشاء حضارة
عظماء في الظل
الوصايا
معك دائما
نون وياء
اليمني
عندما يفوح الياسمين
عنوان مجهول
ترانيم
من بعد غياب
الرحيل إلى الداخل
ليالي باريس الحزينة
هكذا تكلم أبي
النحو الميسر
قيد الماس

أرض دي بلو
مناجاة
لحظة داخل إنسان
الذين أخفوا الشمس
أقلام نابضة
حكايا منتصف الليل
برواز على جدار القلب
كبير العيلة
وصمة عار
خربشات كاتب مجنون
اغتصاب أعشاب البحر
في ظل الحبر - ج١
أصعب فراق
للحب أكتب (أحمد وأحلام)
للحب أكتب (نادر ونورهان)
للحب أكتب (فارس ونادين)
اعرف دينك (ج١)
علماء صاروا شهداء
ضفاف
تأشيرة حياة
مجانين لا يدخلون الجنة
وجوه عابرة
امرأة خرافية
فيلم كرتون
أحوال منطقة أزواغ
محاولات
أربعون عام من الفقر
حطام زاحف
فوق السحاب
كلمات الحياة
إعصار الدم
العشق المنتظر
احترف فن كتابة الرواية
بذور الدم
حديث إلى النفس
موشور اللا متناهية
قصائد على خد الورد
عازف على ضفاف الشوق
وإني أشتهي وصلا
وانفرطت حبات السحر
هذا ما حدث بالفعل
انتبه إلى يمينك لعله يسار
ماذا علمتني الأيام
قهوة سادة
ثم أشرقت الشمس
دين السياسة
عيونك دربي
في جحر الأرانب
النارية
في الحافلة
نساء على ضفاف الحلم
تغريدة الروح والدم

ديوان الحب والحكمة
خفقات قلب
زهرة الصحراء
في ظل الحبر ٢
على ضفاف الذاكرة
محسن المصدوق
إسراء - أصفار العهد القديم
وعلينا السلام
انتقام الشر
الأحلام الوردية
أنت الحياة ودونك الموت
رسايل بحيص
ميراث الماضي
بداية حياة
سلة التفاح
فضة
قانون الحب
على الهامش
بين الجدران
مريم
العملاء
حنايا الروح
غربة حرف
خيوط الخيانة
أروقة الحنين
إحساس محمود
أنين سديم
الأتينيو
طلسم عشق
على شرف المحبرة
رباعيات
معزوفة حرف
في ظل الحبر ٣
أفول الأوهام
حديث الروح والقلب
أرض الأحلام
غابة التعاويذ السبعة - ملوك وتيجان
داون ٢١
فين عصايتك
من برلين إلى مارلين
حبيبتي أميرة البحار
رسائل أحرقتها العواصف
أفكار للتأمل
الجني العجوز
أحببت قمرا
غابة التعاويذ السبعة - أرض الأجداد
قلوب من الجنوب
بداخلي غصن زيتون
كلام ابن عم حديت
عذراً أيتها الخنساء

فلييق الأمل
لا سكاكين وجع في هذه المدينة
سر الملكوت
قرة عيني
عيناكِ
ياء .. سين
بداية جديدة لكل أم
وقتي من ذهب
القائد الصغير
سمير وهدفه النبيل
لأنك مني
قابلتك في المترو
قبة الحياة
ماريوه
لقاء غريب
وحينما افترقنا
دوائر
آخر قطرات الحنين
اليوم الأجمل لم يأت بعد
عندما ينطق الحرف
الغروب الأخير
رانت الأيام
أبعد من الكلمات
اتجاه إجباري
قصة عشق - ج١
سجود المشاعر
رسائل لم تصل
بين أجنحة الكاردينال
أسيرة روح
صغيرتي
حكايات رحال
جوري
غربة روح
توءم الشعلة
عادي في بيتها
رسائل منسية
خلف القلوب الصامتة
وقابلتُ شيطانا
تزوجيني أولا
لم أكن أتوهم
ملاك أنت أم بشر؟
العملية كوبرا
ذلك الغريب
عاشقة على سفح القمر
احترس هناك بشر
قسمة ونصيب
مع العصفور
برادلي ولغز أهل النجوم
أزرق داكن
غموض عنوان
مخطوطة إبليس
حبر الألم
متاهات الحجرة المغلقة
طريقي بقربك
موعدنا ذات صباح
بلدة على أطراف العالم
بين طيات الهوى
أسرار الالتفات في سورة النحل
سكين ودماء
رجة عقل
تاج
كأولين
صديقي عرّوب
حكايات شارع العمدة
محاولات في القافية
دور المجمع العلمي العراقي
عاليا يا عرب
حروف مبعثرة
القرآن خارج الصندوق
نعم أحبه.. ولكن
فرس على جبل
لامار
عندما يُعشق الزيتون
أخر الحلم
حواء تحت الهامش
سيكولوجية النهاية
عنكبوت اللهفة
حديث لا يقبل الرحيل
ذات الرداء السماوي
العنقاء
ضمير الشيطان
الحياة في ريفانا
امتنان
سقوط بطئ
السر الأسن
شيفرة القدر
لسان التمساح
ليليان
بطل بلا عنوان
مشكاتي تنزف عشقا
نحو مقاربة جديدة لإعادة التربية
ظلال على جدار الروح
إعدام القيود

www.lotusfreepub.com

رقم الإيداع
2019MO6292

الترقيم الدولي ISBN
978-9920-668-64-4

الترخيص
مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف
٤,٠ - دولي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

هشام وهبي

متاهات الحجرة المغلقة

دخل الغرفة؛ وقف أمام المرآة الطويلة الناصعة،
نظر إلى الصورة المنعكسة فيها وكأنه ينظر
إلى شخص آخر،
أين اختفت العينان الصغيرتان
ذواتا النظرة الحادة؟
والشفتان الدقيقتان؟ والأنف المعقوف؟
بل.. ما هذا الشعر الفاحم الجعد؟
أفاق من ذهوله وتأملاته،
بعد أن هزه صاحب المحل هزات خفيفة
طالبا منه مغادرة المحل وهو يتمتم:
- إنني.. إنني لست أنا..
بدأ همسه يتعاظم وهو يقف في الشارع،
الناس ينظرون إليه في حذر،
فجأة يصبح همسه صراخاً:
- ما لكم تنظرون إليَّ..!؟
لست أنا.. لست أنا..

مشروع النشر الحر
الإصدار رقم ٣٤٧
الغلاف: رؤى صباح مهدي